

الإسلام مبدع العصر الحديث

الإصدار (٣٨)



وحيد الدين خان

ترجمة : مبارك عامر بن قنه

الطبعة الثانية



الإصدار (٣٨)



الإسلام مبدع العصر الحديث

لو أن الإسلام لم يأت مطلقاً للوجود، فهل سيكون هناك نقص حقيقي في تاريخ هذا العالم؟ هذا السؤال كان سبباً في تأليف هذا الكتاب، فحين جاء الإسلام قضى على الخرافة والجهل وأصبح الإنسان ينظر للكون على أنه مسخر للإنسان فأنعش الفكر العلمي وازدهر علم الفلك والفيزياء والهندسة والرياضيات والعلوم التطبيقية.

الكتاب يميط اللثام عن هذه الحقيقة التي يتجاهلها كثير من الناس، فلولا الإسلام لما كان هناك حضارة غربية ولا شرقية ولبقي العالم الغربي يعيش في العصور المظلمة، لقد أبدع المؤلف في بيان هذه الحقيقة دون تعصب أو تحيز أو تغيير وتبديل لوقائع التاريخ .

الناشر



المملكة العربية السعودية
00966591104492
ص.ب 242193 الرمز البريدي 11322
daralwae@gmail.com

تصميم الغلاف





الإسلام مبدع العصر الحديث

الإسلام مبدع العصر الحديث

تأليف

وحيد الدين خان

ترجمة

مبارك عامر بقنه

الإسلام مبدع العصر الحديث

تأليف : وحيد الدين خان

ترجمة : مبارك عامر بقنه

الرياض - ١٤٣٧هـ



مركز الفكر المعاصر

الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ

markazalfekr@hotmail.com

هاتف ٠٩٦٦٥٩١١٠٤٤٩٢

قديماً كان عصر الخرافة. واليوم نحن نعيش في عصر العلم. وكان على عصر العلم الحديث أن يجتاز ثلاثة مراحل قبل الوصول إلى ذروته في الوقت الحاضر: الأولى تميزت باستئصال العقلية الخرافية. والثاني ظهور البدايات العملية للبحث العلمي. والثالث التراكم المثير للعملية العلمية في النصف الثاني من القرن العشرين. والكتاب يتناول المساهمة التي قدمها الإسلام خلال الألفية الأولى لإكمال المرحلتين الأولى والثانية.


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

لقد جاء الإسلام والعالم مضطرب قلق، مضطرب في معرفة الإله، فقد انتكست الفطر إذ جعلوا مخلوقات الله تعالى آلهة تعبد من دون الله تعالى، فماج الشرك في الهند واليونان وفارس والعرب بل تكاد الأرض كلها يكسوها الشرك والخرافة إلا بقايا من الموحدين، ثبت في الصحيح عن عياض ابن حمار ، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « إن الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » فالبشرية قبل البعثة النبوية كانت تعيش فترة انحراف عن طريق الحق، وجنوح نحو الباطل، وعماية في معرفة المخرج، كانت تعيش حالة من التيه والضياع، هذه الجهالة البشرية استحقت عليها مقت الله وغضبه، كانت فترة إنسانية مظلمة حالكة، فالفطر البشرية تبدلت، والتصورات فسدت، والقيم انتكست، فكل الأنظمة البشرية أعوجت عن طريق الحق، فالنظام السياسي مبني على الاستعباد، والنظام الاقتصادي قائم على الربا والمكس وأكل أموال الناس بالباطل، والنظام الاجتماعي يسوده التمييز العنصري والتفاوت الطبقي، وكل هذا لأنها تركت الغاية التي من أجلها خلقت، تركت المنهج الرباني الذي يقيم حياتها وآخرتها، فظلت البشرية وسقطت في جاهلية عمياء، مقتها رب الأرض والسماء.

فمن تصور الوضع قبل الإسلام وشاهد وضع البشرية بعد الإسلام أدرك مدى عمق تأثير الإسلام على البشرية قاطبة، ولك أن تتأمل كيف استطاع الإسلام في فترة وجيزة أن ينتزع براثين الشرك ويغير تصورات البشرية، إنه عمل جبار في فترة وجيزة لا يمكن أن يتحقق لولا كمال المنهج الإسلامي وتوازنه وتوافقه مع الطبيعة البشرية؛ بل مع الحياة

برمتها. ولك أن تعجب مما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية[1]: « ...فتكلم يزدجرد فقال: إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفوناكم، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم. فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم. فأسكت القوم فقام المغيرة بن شعبة فقال: أيها الملك، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالما، فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، ونرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، وأن يبغي بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك فبعث الله إلينا رجلا...الخ» فهذا التغيير من الصورة التي ذكرها مغيرة بن شعبة رضي الله عنه إلى أن ملكوا الأرض وغيروا التصورات البشرية لهو دلالة قوية على قوة المنهج وصحته. ولا ريب أنه الإيمان الذي غيرهم ورفع قيمتهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥].

لقد جاء الإسلام ليخرج الإنسان من التيه والضياع، ليعيد للإنسان إنسانيته، كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه: «ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2] فالله ابتعث أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، ليخرجوا البشرية من المهالك،

(١) البداية والنهاية : (٧/ ٤٩)

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٤)

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

لقد هانت البشرية على الله فمقتها، لولا البقية الباقية من أهل الكتاب، لولا التجاء بعض القلوب الصادقة: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٧] لولا القلة المؤمنة التي تدعو الله. وتتضرع إليه لما عبأ الله بالبشرية، ولك أن تتأمل في كثرة دعاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإلحاحه الشديد في الدعاء حين غزوة بدر، كان يقول عليه الصلاة والسلام «اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فتأمل ما قال: «إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا[١]» يعلق الندوي على هذا القول بكلام جميل: «لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو هلكت هذه العصابة، وكانت فريسة للعدو، أقفرت المدينة، وأوحشت أسواقها، وكسدت التجارة، وبطلت الزراعة، أو تعطل شغل من أشغال الحياة، أو وقفت إدارة الحكومات. لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من ذلك، لأن شيئا منها لم يتوقف على المسلمين ولم يقم بهم، بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال في غنى عنهم، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر شيئا بعث المسلمون لأجله، وقام بالمسلمين وحدهم، فقال: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد»[٢]. فرسالة الإسلام أعظم أن تكون فقط من أجل المأكل والمشرب والمسكن؛ بل كانت لتحقيق حياة

---

(١) صحيح مسلم (٣٣٠٩)

(٢) إلى الإسلام من جديد (١٤)

الإنسان الحقيقية، ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة: ٢٤].

وقد جاء عن أسلم أبي عمران قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه مه لا إله إلا الله يلقي بيديه إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه وأظهر الإسلام، قلنا هلم نقيم في أموالنا ونصلحها فأنزل الله تعالى ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] »[1]. فكانت الرسالة واضحة جداً وهو لتغيير المنهج الفكري، والاعتقاد الباطل، فهذا هو الهدف الأول والرئيس، وحتماً أن تطورات الحياة الإنسانية ستتبع التغير المنهجي، فالوظيفة الأساسية هي تعبيد البشرية لله تعالى، فما انحرفت في حياتها وفسدت معيشتها واضطربت تصوراتها إلا حين تركت عبادة ربها.

الإسلام جاء ليقيم الحياة بصورة متوازنة، فوضع عن كل أمة إصرها، والأغلال التي كانت عليها، وأنقذها من العنصرية، ووحد وجهتها فلا تعبد إلا رباً واحداً المستحق للعبادة، فشتات الإنسان وضياعه حين يفقد هذا الرؤية ويتجه لعبادة مخلوق فيعبد المال أو الحجر أو الشجر أو النهر أو جرم سماوي أو أي شيء سوى الله عز وجل فإنه سيخضع نفسه لمخلوقات هي أدني منه مرتبة وهي عاجزة عن نفع ذاتها فكيف تحقق له النفع، فعبادة غير الله سقوط مخيف في الانحراف الفكري فهو لن يستطيع أن يضع الأمور في موضعها الصحيح.

---

(١) سنن أبي داود رقم (٢١٥١) صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود رقم (٢٥١٢)

مما ميز المنهج القرآني أنه أعاد وضع الأمور في موضعها الصحيح، فميز بين الخالق والمخلوق، وإعطاء الخالق ما يستحقه من تقديس وتبجيل وتعظيم، وصحّح التصورات الإنسانية في رؤيته للوجود، فجمع بين الغيب والشهادة، وجمع بين الحس وما وراء الحس، فالوجود وجودان وجود حسي منظور ووجود غيبي غير منظور، وكلا الوجودان خلقهما عز وجل، فرؤية المسلم لهذين الوجودين بأنهما من خلق عز وجل، فليس هناك ثنائية في الخلق، بل الله متفرد في الخلق والتكوين من العدم، وهذا التفرد في الخلق لله تعالى استلزم الإفراد له بالعبادة، فتحقق التوحيد في عقيدة وفكر وقلب المسلم، فضبط تفكيره بصورة دقيقة حتى أمكن أن يرى الحقائق كما هي، فأصبح تفسير الكون والحياة والإنسان تفسيرا منسجماً مع بعضه بعض، بعيداً عن الخرافة، متوافقاً مع الفطرة البشرية، فبنية المنهج الإسلامي في التفكير والفهم أنه يقوم على التوحيد، مؤمناً بوجود غيبيات لا يدركها العقل، مع عدم اغفال لدور العقل في فهم المحسوسات، فهو يجمع بين الحس وما وراء الحس، ويجمع بين القدرة البشرية وما وراء القدرة البشرية، ويرتكز في تكوين تصوره على وحدانية الله تعالى وأنه الخالق المتعالي عن النقص، وكل ما في الوجود هو مخلوق لله تعالى، بهذا التصور استطاع الإنسان أن يضع منهجاً صحيحاً. بخلاف المناهج البشرية التي اسقطت الإنسان في دركات الخرافة، وحالت بينه وبين فهم الحياة على الصورة الصحيحة.

لقد نظر المسلم إلى مخلوقات الله تعالى بأن الله تعالى سخرها له، فكل ما في الأرض خلقه الله تعالى للإنسان: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] وتظهر صورة تسخير مخلوقات الله تعالى مبينة بالتفصيل في سورة النحل، فيقول عز وجل: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: الآيات ٥ــ ١٨]

فالحيوانات والنباتات والبحار والجبال والأفلاك قد جعلها خاضعة ومسخرة لخدمة الإنسان، فيستعملها كيف شاء، وهذا تكريم للإنسان كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الأسراء: ٧].

فهذه النظرة للكون جعلت المسلم يسعى ليكتشف قوانين الطبيعة ونواميس الكون كي يستخدمها فيما يراه نافعاً له، فرؤية المسلم للكون أنه مسخر للبشر وليس البشر مسخرين للكون، فلم يتجه لعبادة الكون أو أي شيء من خلق الله تعالى؛ بل يراها مخلوقة له كي يحقق سيادته وسيطرته وخلافته عليها، وهذه الرؤية تجعل الإنسان باستطاعته إحداث الفعل فيها.

لقد غير الإسلام التاريخ وأحدث حياة جديدة وتاريخاً جديداً، وهذا التغير الذي أحدثه الإسلام لا يمكن رؤيته ما لم ننظر للتاريخ بصورة شمولية، فقراءة التاريخ تتطلب رؤيته برؤية متكاملة فلا يكفي الرؤية

المادية بل لا بد من رؤية إيمانية كي تكتمل الصورة فنرى صور الجمال الكامنة في تاريخنا، فمن أراد أن يكتب عن تاريخ الأمم عليه أن لا أن يبقى سجين رؤية واحدة تقيده.

كاتب التاريخ يرحل بفكره ووجدانه نحو ماضي قد تكون صورته ليست واضحة أو مكتملة، لكن عليه أن يرحل هناك ليس فقط ليشاهد الصورة؛ بل أن يجلب هذه الصورة ليريها الآخرين فينظرون إلى مواطن حسنها وجمالها، ويرون فيها أيضاً ما لا يرغبون في رؤيته، وهذا هو الصعب في الأمر أن تسعى لتُري غيرك صورة كاملة لا خلل فيها، وخصوصاً أن هناك فجوات وثغرات في التاريخ تتطلب من الكاتب أن يبذل جهده وطاقته في ردم هذه الثغرات بطريقة علمية منهجية صحيحة.

الكتابة عن التاريخ من أدق القضايا إذ لا يسلم فيها الكاتب غالباً من التحيز نحو أمة أو نحو فئة أو شخصية تاريخية أو حتى فكرة ما، فقد يتجه بقصد أو بغير قصد نحو إظهار ما يميل إليه بصورة زاهية، فيجمله ويحسنه حتى تقبله النفوس، وإن كان مبغضاً فسيتجه نحو ما يبغض فيشوه صورته ويخفي محاسنه حتى تبدو صورة بغيضة كريهة، وهذا نجده واضحاً في كتابة بعض المستشرقين للتاريخ الإسلامي، فخذ على سبيل المثال مؤلفات «بيتر» والذي يعتبر المنبع لكتاب العصور الوسطى فيما يتعلق بالترجمة، فكتابته تتسم بالعداء والتعصب، فتجد في كتبه الأساطير والأكاذيب عن المسلمين. على أننا نعلم أن هناك من المستشرقين من كان منصفاً في كتابة للتاريخ الإسلامي، وكان متحمساً للحضارة العربية تحمساً كبيراً، وهناك من اشتد إعجابه بالإسلام حتى انه اعتنق الدين الإسلامي، لذلك لا يمكن بحال أن نجعل كتاب التاريخ في بوتقة واحدة سواء كانوا مستشرقين أو غير مستشرقين، فالدوافع تتغير من شخص لآخر، ومن مؤسسة لأخرى، ولهذا كان من أصعب القضايا

هو الكتابة التاريخية لأنها تتطلب تجرد نفسي شديد، وبذل جهد كبير في الحصول على المعلومة ومعرفة الحقيقة.

وهؤلاء الذين يكتبون بصورة حاقدة أو من منطلق الكره والعداء وكتمان الحقائق هم الذين يسيئون للتاريخ، فيقلبون الحقائق من أجل تحقيق أهدافهم أو أهداف من يبعثهم على الكتابة التاريخية، فكثير من المسيحيين كانوا يظنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو إله المسلمين كما كان عيسى إله المسيحيين، وهذا التشويه المتعمد هو لصرف الناس عن معرفة الحقيقة.

ولم يكن جهل تاريخنا مقتصراً على الغرب أو الشرق؛ بل امتد هذا الجهل حتى أصبح أبناء الإسلام يجهلون حقيقة التاريخ الإسلامي، فلا يرون فيه إلا صورة القتال والدماء، فغابت عنهم صور البعد الإنساني، وتلاشت كثير من كتب التاريخ عن ذكر مآثر علماء المسلمين، وكأنها ليست جزءا من التاريخ.

نحن بحاجة لمعرفة ما أنتجه أسلافنا من منجزات علمية ومعرفية كي ندرك إننا أمة متجذر فيها العلم والاكتشافات المعرفية، فمعرفة ذلك يمنح المرء مزيد من الثقة والاعتزاز بتاريخه بل قبل ذلك بمنهجه الذي كوّن هذه العقليات المعرفية، جهلنا بما قدمه علمائنا من منجزات علمية أدى إلى بعض الجهلة الاستخفاف والتطاول المقيت بالزعم أننا أمة لم نقدم شيئًا لهذا العالم، فتاريخنا العلمي يشهد أننا أمة متزنة فكريًا، فلا ترى أن العلم يتناقض مع الدين؛ فالدين والعلم قرينان لا يمكن فصلهما بحال، بل الدين محفز ودافع نحو العلم الصحيح، وما تقدمت الأمم علميًا ومعرفيًا إلا بظهور الإسلام، فهو يحفز نحو التعلم ويرسم المنهجية الصحيحة في التعلم، فديننا في الأساس قائم على البرهان والدليل، والعلم يقوم على البرهان والدليل فلا تعارض بين الدين

والعلم، وليس هناك نصاً صريحاً أو غير صريح في ديننا ضد العلم، بل كل النصوص الشرعية تتضامن في الحث على العلم، سواء كان العلم شرعي ديني، أو مادي حسي، ودعوة أن الدين ضد العلم هذا يصح لدى الكنيسة لكنه لا يصح في المسجد والمصحف.

وهذا الكتاب يتميز بنظرته الإيمانية وتحليله المنطقي، فلم يتعصب لرؤيته ولم يتخلى عن التحليل والربط المنطقي بين صور الأحداث والأسباب الكامنة وراءها، لقد استطاع الكاتب أن يبرهن أن سبب ارتكاس الأمم وتخلفها هو سقوطها في الشرك والخرافة، وحين أزال الإسلام الشرك وتحررت من وهم الخرافة استطاعت البشرية أن تنجز أبحاثاً علمية لم تسبق من قبل، فالعقل البشري لم يستطيع أن يلج في البحث العلمي ويتجه نحو التجربة حتى قدم الإسلام ووضع له منهجية في التفكير متسقة مع الطبيعة البشرية وطبيعة الكون.

لقد سعى الكاتب إلى نصرة الحق المتمثل في المسلمين، ولم يحاول أن يخفي فضائل العرب، بل كان عادلاً في وصفه للأفراد والجماعات، فكان يكشف الحقيقة ويرد المزاعم الكاذبة، كالزعم أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية حين دخلوها، فأظهر أن العرب حين دخلوا الإسكندرية لم يجدوا فيها مكتبة كبرى، فالمكتبة الكبرى قد دُمرت من قبل دخول العرب بزمن طويل، وكان يعرض هذا الردود بطريقة مختصرة مستنداً على ذلك بمصادر غير عربية في غالبها.

لقد كان عملي في الكتاب هو نقله إلى العربية مع بعض الاختصار وحذف المكرر منه دون إخلال لمضمونه كي يكون أسهل في القراءة، وقد خرجّت الآيات والأحاديث التي ذكرها الكاتب، وأحلت بعض ما ذكر إلى مصادرها باللغة العربية، راجياً أن أكون قد وفقت في عملي هذا.

وفي ختام مقدمتي هذا، أشكر أخي العزيز المفكر الإسلامي سعيد جبران الأشعري على ما لقيته من عون وبذل جهد لطباعة هذا الكتاب، فله مني كل الشكر والتقدير وجميل الثناء وأحسنه، وكما أشكر مؤلف الكتاب على بذله هذا الجهد المبارك في تبيين أثر الإسلام ومآثر المسلمين على العالم أجمع، سائلاً المولى عز وجل أن يكتب له الأجر الوافر على ذلك، وأسأله الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناته، وأن لا يحرمني ولا يحرم قارئ هذا الكتاب الأجر وأن يجعل ذلك مما نبتغي به وجه سبحانه وتعالى. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: مبارك عامر بقنه

mubarak200@hotmail.com

رائد الفضاء الأمريكي نيل آرمسترونق كان أول إنسان تطأ قدمه على سطح القمر بعد رحلة فضائية استقرت أربعة أيام في ٢ يوليو عام ١٩٦٩ وعند بلوغ رحلته تلفظ بهذه الكلمات والتي تعتبر الآن جزءاً من التاريخ: « هذه خطوة صغيرة للإنسان، ووثبة عملاقة للبشرية»

أجرى آرمسترونق جنباً إلى جنب مع زملائه «آيدون» و «مايكل كولنز» رحلتهم في صاروخ خاص يسمى أبولو ٢. وفي المرحلة الأخيرة استقلوا مركبة قمرية تسمى «النسر» لكي ينزلوا على سطح القمر.

هذان المركبان أبولو والنسر لم يكونا ـ كما قد يتوهم بعض الخياليين منا ـ سحرا، فتحليق المركبات هو تصميم الآلات وصناعتها علمياً وفق ملاحظاتنا لقوانين الطبيعة الثابتة. ويرجع قدرتها لاجتياز المسافات الضخمة في الفضاء للتطبيقات الصحيحة للمعرفة التجريبية الإنسانية.

هذه القوانين، والتي مكّنت الإنسان حين تطبيقها من الوصول إلى القمر، موجودة في الكون منذ زمن سحيق، وقد أخذ الإنسان قروناً ليكتشفها نظراً لإمكانات الطبيعة، فلماذا مرت آلاف السنين في طريق تقدم الإنسان قبل أن يشعر أنه على استعداد للانطلاق للفضاء؟

الإجابة عن هذا السؤال هو تفشي الشرك، تلك العقيدة التي تنظر للأشياء والمخلوقات كآلهة، وتشجع على عبادتها. لقد سيطر الشرك في الزمن الماضي على كل أرجاء المعمورة، واعتبر الإنسان أن القمر إله. كما فعل مع كل أنواع الجمادات الأخرى ليجعلها آلهة. فضوء القمر الفضي اللامع ألهم الإنسان أن يعبده بدلاً من أن يحاول أن يسخره. فكانت أكبر عقبة أمام التفكير في السيطرة على القمر هو جعله مقدساً.

ثم، ولأول مرة في القرن السابع، جاءت نهاية سيطرة الشرك من قبل الثورة الإسلامية، فحل محله التوحيد، لتكون عقيدة العصر المهيمنة.

هذه الثورة قامت بداية في العرب، ثم استمرت رحلتها نحو الأمام خلال آسيا وأفريقيا إلى أوروبا. وفي الوقت الحالي، عبرت الأطلنطي لتضع لها موضع قدم في أمريكا.

هذه الثورة حدثت في العالم الإسلامي خلال تأثير الدين. وبدأ العالم الغربي، مع ظروفه الخاصة، يطور هذه الثورة في خطوط مختلفة، فتم فصل العلم عن الدين تدريجياً حتى حدثت تراكماتها المعاصرة. ورحلة القمر التي ذكرناها آنفا هي مثال واضح.

كما إن التأميم وهو جزء اقتصادي من نظام فلسفي طوره ماركس، والعلم الحديث هو مثله جزء قد أجتز من الثورة الإسلامية وهذا يصح على كل العلوم والتي تسمى الآن العلوم الطبيعية. حيث حقول هذه العلوم أصبحت منطقة محرمة بسبب نظرة الشرك في تقديس كل الظواهر الطبيعية. إنها ثورة التوحيد التي فتحت أبواب البحث والتحري بإزاحة الطبيعة عن وضعها المقدس.

وهنا بدأ عصر جديد من الحرية في بحث الطبيعة. كان البحث بطيئا، إذ استغرق ألف سنة من النضج حتى أدى التراكم النهائي في العلم والتقنية الحديثة. العلم الحديث بمجمله هبة الثورة الإسلامية، مباشر في مراحله الأولية، وغير مباشر في مرحلته الأخيرة.

هذه الحقيقة اعترف بها العموم بطريقة أو بأخرى. فعدد من الكتب صدرت في الوقت الحاضر تشهد بقبول عام، مثل: «الانجاز العلمي للعرب» أو « مساهمة المسلمين في الحضارة».

يتفق العلماء أن التقدم الصناعي المعاصر يدين وجوده لتأثيرات المسلمين العرب. كتب «أ. هومبولدت»: « إنهم العرب الذين يعتبرون المؤسسين الحقيقين للفيزياء»[1] .

---

(١) تاريخ أوروبا الغربية، لهنري بيرين

وكتب «فيليب حتّي» في كتابه «تاريخ العرب»: « لم يساهم أحد من الشعوب في العصر الوسيط في تقدم الإنسانية بقدر ما فعل العرب والشعوب المتحدثة باللغة العربية[1] »

قبل المؤرخون بشكل عام أن العلم الذي وصل لأوروبا خلال العرب ـ من يكونوا، بالطبع إنهم المسلمون ـ هم الذين جلبوا في النهاية عصر النهضة ـ أول اليقظة، ليكون أكثر دقة ـ. كتب البروفسور «حتّي» أن ترجمات الكتب العربية متاحة بلغات مختلفة، بالإضافة للأعمال الأصلية المكتوبة من قبل العرب بعد إنشاء بيت الحكمة، في بغداد عام ٨٣٢م ترجمت إلى اللاتينية.« هذا التدفق أُعيد تحويله إلى أوروبا عن طريق العرب في أسبانيا وصقليه حيث ساعدوا بخلق النهضة الحديثة في أوربا».

ويبقى السؤال الذي يتعين الإجابة عليه، ما الذي أحدث هذه العقلية لدى العرب في الزمان الأول، باعتبار أنهم قد غرقوا في نفس التخلف الذي ساد في العالم أجمع في ذلك الوقت؟ هناك فقط جواب واحد: عقيدة التوحيد كانت السبب لهذه العقلية والثورة العملية. الأمم الأخرى كانت مشركة، بينما العرب، بعد مجيء الإسلام، تشربوا بروح التوحيد. إنه هذا هو الفرق الذي أحدث الاختلاف في تواريخهم، فهناك من تشكلوا بمجرى الأحداث، وهناك من شكلوا التاريخ نفسه.

الهدف من هذا الكتاب هو لوضع الحدث التاريخي العظيم في مشهده الصحيح، فمثلاً، عزو إسهام «العرب ـ المسلمين» الحاسم في العلم الحديث للإسلام نفسه بدلاً من إعطاء كل هذا الشرف للمسلمين، فالإسلام سبق التجربة.

هذه النقطة يمكن توضيحها بالطريقة التي ملكت الهند نفسها في عام ١٩٤٧م، فمقدرة الهند لتحرير نفسها. ربما تُعزى إلى «غاندي» و «نهروا» ولكن لو ذهبنا للأمر بعمق أكبر، نجد أنه من الأنسب أكثر أن

---

(١) تاريخ العرب لفيليب حتّي (٤)

نقول إن أفكار الديمقراطية والوطنية الحديثة هي التي ساعدت الهند لنيل حريتها. فمجيء القوة الفكرية العالمية بنيت أساساً على مبادئ الديمقراطية والحرية الوطنية في العصر الحديث، وبالطبع هذا مهد الطريق لظهور «غاندي» أو «نهرو» والذي أصبح في وضع يسمح له بإطلاق حركة التحرير بنجاح. فلو لم تكن الثورة أحدثت قبلاً في الفكر، فإن الحركات التي أطلقها قادتنا سيكون فرص نجاحها قليل.

وينطبق هذا أيضاً على موضوعنا الذي هو قيد المناقشة الآن، فلا ريب أن الثورة العلمية الحديثة بدأت بفضل المسلمين العرب، حيث أن المحفزات الأولية أتت من منهجية التفكير الجديدة التي تحققت بفضل الإسلام. منطقياً، تاريخ العلم لم يعد قادراً على تمجيد انجازات أمة واحدة فقط، ولكن يجب أن يظهر العلم الآن في ضوئه الحقيقي كهدية من الدين الذي أنزل من الحق سبحانه وتعالى لإرشاد الإنسانية إلى الأبد.

اعترف « هنري بيرين» بأن ذلك حقيقة تاريخية:« الإسلام غير وجه العالم، فقد أزال النظام التاريخي التقليدي»

هذا الكتاب هو مدخل تلخيصي لهذا المظهر من الثورة الإسلامية. لقد كانت نيتي أن أقدم دراسة شاملة للموضوع، ولكن عمل جمع المعلومات كان يسير ببطء شديد، وشعرت أخيراً أن الضغوط التي تمر بي لن تتيح لي تحضير مادة شاملة كما نويت في الأصل.

لقد قررت بعد ذلك أن أنشر الكتاب دون تأخير مهما يكن شكل المادة. وإذا سمح الوقت والظروف، فإنه سيكون هناك بحثاً أكثر وإضافة معلومات أخرى إن شاء الله ولكن إذا الخطة لم تؤتي ثمارها، فأمل أن هذا الانطباع الأولي يكون مساعداً لأي شخص آخر يريد في وقت ما في المستقبل الشروع في إعداد الانطباع الثاني.

وحيد الدين خان

١٦ إبريل ١٩٩٣

في عام ١٩٦٥م كنت في زيارة للكنو، قابلت هناك شخصاً غير مسلم متعلم تعليماً عالياً، وهو لا يؤمن بالدين ويعتبر مناقشة الدين لا معنى لها اطلاقاً. وخلال الحديث معه، طرح هذا السؤال أمامي:« لو أن الإسلام لم يأت مطلقاً للوجود، فهل سيكون هناك نقص حقيقي في تاريخ العالم؟» أجبت بطريقة عفوية: «نعم، فإنه سيكون نفس النقص الذي كان موجوداً قبل مجيء الإسلام» لقد أسكتته إجابتي. وكان ينبغي عليه التسليم من وجهة النظر التاريخية. كل التقدم جاء إلى العالم فقط بعد ظهور الإسلام. لا زال لديه بعض الشكوك في أن كل التقدم له علاقة بالحدث التاريخي المُسمى بالإسلام، أو الثورة الإسلامية.

هذا هو السؤال التاريخي الذي يحاول الكتاب وضعه في منظوره المناسب عن طريق عمل بحث العلاقة بين الثورة الإسلامية والتقدم الحديث في كل المظاهر. لا يوجد شك أن الإسلام، في جوهره، هو اكتشاف الهداية الإلهية كما أنه يحقق للإنسان طريق النجاح الأبدي في الآخرة. التقدم الصناعي والعلمي ربما لا يتعلق مباشرة لأهداف وغايات الإسلام، ولكنه مع الحقيقية التي لا تقبل الجدل أنها انبثاقات كبرى من الثورة الإسلامية. فلو لم ترى الثورة الإسلامية النور حتى اليوم، فإن التقدم العلمي والصناعي اليوم سيبقى غير مدرك.

الهدف الرئيس من الشجرة أن تحمل الثمرة، ولكنها حين تكبر بالكامل، فإنها أيضاً تمنح الإنسان الظل. ونفس الأمر ينطبق على الإسلام. الغاية الرئيسة من الإسلام هو فتح الباب للهداية الإلهية للإنسان، كي يكونوا أقرب إلى ربهم. الإسلام هو الحقيقة الكاملة، وعندما الحقيقة توحي بذاتها، فإنه ليس فقط تصبح مصدراً لكل النعم الإنسانية ـ سواء كان بصورة مباشرة أو غير مباشرة ـ ومع ذلك فإن الهداية تمنح فائدة عملية عظمى.

خلق الله العالم كاملا، ثم خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم أمر الإنسان أن يعيش في الأرض ويستفيد من كل شيء يجده فيها. وأخبر الإنسان إنه لا يوجد إلا خالق واحد يجب أن يُعبد، وكان على الإنسان أن يعبد هذا الإله فقط دون أن يشرك به.

ولكن عندما ضل الإنسان، لم يستمر في جعل الإله غير المنظور هو مركز انتباهه؛ بل أخذ يعبد أي شيء يراه ضخماً بارزاً، كالأنهار والجبال الخ. الأسوء أن رغباته نحو الآلهة المنظورة صارت في ازدياد، وأصبح أي شيء كبير ومثير للإعجاب اعتبر إما إله أو أنه يملك صفات الألوهية. فمن جهة أحدث هذا فكرة تقديس شخصيات محددة، ومن جهة أخرى قادته نحو عبادة الطبيعة أو وحدة الوجود.

تطورت في الأخير عبادة بعض الأشياء أو الأشخاص دون الله إلى الشرك، وهذا الشرك تدريجياً سيطر على كل مظاهر الإيمان والشعائر، ووجد طريقه إلى كل بيت كحامل للفأل الحسن ومبعد لسوء الطالع. وأصبح ذلك جزءا من العادات، حتى الإيمان بألوهية الملك أضيف إلى كل اعتقادات الشرك الأخرى، وأصبح جزءا أساسيا للنظام السياسي.

هذا كان دين العالم القديم. فالعبادات تأسست في تلك الأزمنة بالكامل على الشرك، لنضعه في بالمصطلح الديني، أو بلغة عامة، الخرافة.

خلال تاريخ الإنسانية، بُعث جميع الرسل في الماضي وفي جميع الأزمنة بالرسالة لتصحيح هذا الانحراف، فدعوا للتوحيد بإنكار الشرك وتبني التوحيد. أكثر من مئة ألف رسول (وفقاً لأحد المرويات[1] جاءوا

---

(١) جاء عن أبي ذر رضي الله عنه: قلت يا رسول الله: كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفا، والرسل من ذلك: ثلاثمائة وخمسة عشر، جما غفيرا » والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله في مشكاة المصابيح. (المترجم)

للعالم من زمن آدم إلى زمن المسيح عيسى عليه السلام. ولكن الإنسان لم يكن راغباً للإصغاء لما يقال. كانت رسالة الرسول مقصورة فقط على إظهار الحقيقة، فهي لم تذهب كي تحدث الثورة بناء على الحقيقة. فاستئصال الشرك أو الخرافة لم يكن مشروعا دينياً بحتاً. والحقيقة هي أن كل هذا الانتشار الكامل للخرافة كان بمثابة عقبة لكل أنواع التنمية الإنسانية.

وضع الطبيعة على أساس التقديس بالكامل بطأ البحث فيها، إذ لا يمكن أن يتحقق التقدم بحال دون البحثي العلمي والصناعي. والتقدم نحو قبول المساواة الإنسانية بشكل عام كان أيضاً ممتنعا بسبب المعتقدات المتعلقة بالعُلوية أو الدُونية بميلاد الإنسان، والتي جاءت بافتراضات متنوعة لا أساس لها، وكلها تحكمها الخرافة.

الجهود التي بذلها الأنبياء لأكثر من آلاف السنين أثبتت أن أي صراع اقتصر على حقول التفكير أو الدعوة لم يكن كافياً لإخراج الإنسان من سيطرة الخرافة. حتى حكومات تلك الأزمنة أُسست على المعتقدات الخرافية. فمصالح الحكام كائنة في استمرار وامتداد عصر الخرافة. لكي يستمر الهيمنة على الرعية بالإيمان بحق الألوهية للملوك، لدرجة أنهم لا ينبغي أن يسألوا حقهم في الحكم، وقد استخدموا كل قوتهم العسكرية والسياسية للقضاء على أي محاولات تضع حدا للشرك والخرافة عن طريق صراع الدعوة.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن ما الاستراتيجية التي يجب أن توظف لكسر الحواجز التي أثارها أصحاب المصالح الخاصة. كان هذا هو الوضع عندما جاء خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالم في القرن السادس بعد الميلاد.

إنه قدر الله أن يكون هو الداعي بالإضافة إلى أنه الماحي. وقد عُهد إليه من قبل الله أن دعوته ليست فقط أن يبلغ العالم أن الاعتقادات

الخرافية أسست على الباطل. ولكن أيضاً اللجوء للعمل العسكري، إذا احتاج الأمر إلى ذلك، كي يقضي على هذا النظام للأبد.

يقول الله تعالى﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[إبراهيم : ١] قادت الدعوة الإنسان من الظلام إلى النور، ومثل هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، قد أُنيط إلى كل الرسل بدورهم. والمعنى الذي ميز رسول الإسلام عن غيره من الرسل، أن الله قضى ـ حيث أنه لا نبي بعده ـ ألا يكون فقط مبلغ للرسالة الإلهية للناس ويدعهم وشأنهم؛ ولكن أيضاً عليه أن يتخذ خطوات عملية لتغيير حالة الوجود بالكلية.

الشروط المطلوبة لوضع هذه الخطة عملياً تم تقديمها كلها من الله. فقد ضمن الله أن أي نقص في الموارد الدنيوية فسوف تعوض بوفرة بمساعدة خاصة من الملائكة.

وهذه النقطة تم بيانها في حديث جاء بطرق مختلفة. ورواية واحدة جاءت بشكل خاص موجهة مباشرة بكلماتها:« أنا الماحي الذي يمحي الله به الكفر »[1] فالنبي صلى الله عليه وسلم ليس فقط داعياً ولكنه أيضاً ماحياً. فهو داعياً للدين، وأيضاً يأمر الناس أن يستجيبوا لدعوته. ويقرر القرآن بوضوح أنه بجانب الإنسان، ملائكة الله تساعده في تكميل رسالته.

في الحقيقة، وصية الله هذه أُدركت من قبل النبي صلى الله عليه وسلم؛ لذلك بشر بحقبة جديدة كاملة.

الدور السلبي للشرك

وبنص القرآن، كان آدم أول إنسان وجد على الأرض، أخبره الله أن الأجيال التالية سيكونون على دينه على التوحيد. وبهذا يضع الخير في

---

(١) عن جبير بن مطعم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب » .
والعاقب : الذي ليس بعده شيء . متفق عليه (المترجم)

هذا العالم وكذلك في الآخرة. ولعدة أجيال اتبع الناس الطريق المستقيم، ولكن حينما بدأ الانحراف بعث الله النبيين لهذا العالم.

انظر (٢:٢١٣)[١].

ولد نوح في العراق بحوالي ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح. واختاره الله رسولا وأوكل إليه مهمة إعادة تشكيل قومه ببيان طريق الحق لهم. ثم أرسل الله الرسل تترا من نوح إلى المسيح عليهم السلام، عملوا كل جهد ليجعلوا الناس يفهمون خطأ منهجهم، ولكنهم لم يستجيبوا لرسلهم.

انظر (٢٣:٤٤)[٢].

ويكمن سبب انتشار الفساد في عدم قدرة الناس على رؤية أي شيء سوى الظواهر فقط، بينما التوحيد يتطلب تقديس الله بالغيب. وللأسف أخفق الناس ليجدوا ويعبدوا ربهم غير المنظور. وبدلاً من ذلك صنعوا آلهتهم من كائنات مريئة. كان التوحيد هو دين الناس، لكن الانحراف الذي جاء في الأزمان المتأخرة أدى إلى أن يقسر العالم في اتجاه الشرك.

التوحيد أعظم حقيقة. فعندما يؤمن الإنسان بإله واحد، فإن كل شؤونه ستكون صواباً. وعندما يهجر هذا الاعتقاد، فجميع شؤونه تسير منحرفة. التوحيد يمدنا بالمقياس الذي نحكم به على نهوض أو سقوط الإنسان. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن

---

(١) يقصد قوله تعالى﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة :٢١٣] .

(٢) يقصد قوله تعالى﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾[المؤمنون : ٤٤].

مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٢-٦٧].

المدى الحقيقي للضرر القائم من الانحراف عن التوحيد سيكون ظاهراً في الحياة القادمة. بما إن التوحيد هو حقيقة الكون، فالانحراف عن التوحيد يعني، في واقع الأمر، انحراف عن الحقيقة. وحياة هؤلاء الذين ضلوا الحقيقة سيعانون من تشوهات خطيرة ليس فقط في الحياة القادمة، ولكن أيضاً في العالم الحاضر. هذه هي الحقيقة التي أشارت إليها الآية السابقة.

السبب الرئيس لهذا هو أن الشعور بالإله مغروس في الطبيعة الإنسانية. الإنسان نتيجة لإلحاح طبيعته، اضطر أن يؤمن بالله ويستسلم له. ويمكن للإنسان أن يرفض الإيمان بإله واحد، ولكنه لا يستطيع أن يرفض طبيعته. وأولئك الذين لا يؤمنون بالخالق عليهم أن يدفعوا الثمن وذلك بالإيمان بمخلوقات الله. إننا نقول، إن التجديف في مواجهة الحقائق، هو إعطاء بعض المخلوقين الاعتبار الذي يجب أن يُعطى لله فقط.

خالق ورب هذا الكون هو الله، فكل التعظيم الحق له وحده، وعندما الإنسان يجعل الله هو المقصود الوحيد للعبادة فإنه يعترف بالعظمة للواحد الذي يستحق بحق هذه الطاعة. وحين يعترف الإنسان أن الله عظيم، فإنه يقف وجها لوجه مع الحقيقة. وعلى هذا النحو، تكون حياته حياة حق، خالية من كل أنواع التناقضات. فكل تفكيره وأفعاله تتبع الطريق الصحيح. فتكون كينونته منسجمة مع حقائق الكون. فلا تناقض بينه وبين هذا الكون.

وعندما يتخذ الإنسان شيئا دون الله ليعظمه، ويمنحه المكانة التي ينبغي أن تكون لله وحده، فالنتيجة أن موقفه يصبح غير حقيقي. فإنه يكون شيئاً

لا مكان ولا ارتباط له ولا يستطيع أن يكون منسجما مع حقائق الكون. فكل حياته، بدلاً من تأخذ طريق الواقعية، تأخذ طريق الظن.

هنا مثال يوضح هذه النقطة. إيمان النصارى بالتثليث جعلهم يفترضون أن المسيح، ابن مريم، هو الله. والمسيح، في حقيقة الأمر، هو ابن مريم. ولكن النصارى، بالغت بأهميته، وأعطوه مكانة ابن الله. فهم منحوه التعظيم الذي لا يستحقه إلا الله، فهو خالق كل الناس بما فيهم المسيح.

نتيجة لهذا الإيمان، وجدوا أنفسهم محاطين بتناقضات كبيرة، إحداها تنبعث من إرادتهم ليروا النظام الشمسي كمادة لاهوتية.

الفلكي القديم بطليموس (٩٠ـ ١٦٨)، الذي ولد في اليونان، قام ببحث في زمن الإسكندر العظيم، وكتب كتابا مطولاً باللاتينية، قدم فيه نظرية أن الأرض ثابتة والشمس والقمر والكواكب يدورون حولها. وبفضل دعم النصارى، سيطرت هذه النظرية على عقول الناس حتى استبدلت في القرن السادس عشر بنظرية كوبرنيكس.

بقدر ما يشعر النصارى بالقلق، حيث أساس الدين النصراني هو الكفارة عن الخطيئة، التي من خلالها قدّر الإله الخلاص لكل الإنسانية. حدث التكفير، وهو مركزي لهذه العقيدة، إذ لا يتعلق فقط بالإنسانية ولكن للكون برمته. وحينما حدث أعظم عمل تكفير فردي، وهو صلب المسيح (كتخليص للبشرية من الخطيئة) على الأرض، فإن الأرض وفق اللاهوت النصراني، صارت لها أهمية عظمى في الكون وبالتالي لابد أن تكون هي نقطة المركز. وهذا جعل النصارى يؤيدون بتفاني نظرية بطليموس بمركزية الأرض، ويعطونها صفة العقيدة الدينية.

بالطبع كان النصارى يعترضون على كل المحاولات التي تثبت حقيقة نظرية مركزية الشمس. حتى جاء البحث الذي قام به كوبرنيكوس، وجاليليو، وكبلر الذين أثبتوا أخيراً بطلان نظرية مركز الأرض.

وفقاً للموسوعة البريطانية (١٩٨٤) فإن مخطط الخلاص في اللاهوت النصراني هو حدث كوني، فعمل التكفير يمتلك دلالة كونية، ويرتبط ذلك من خلال الإنسان بالحيوان. ولكن تظهر دراسة الفلك الحديث أن الأرض لا تزيد عن حصاة صغيرة في بحر كوني ضخم. في ضوء هذه الحقيقة، يفقد معنى المسيح نفسه وبعض تأثيره، ويظهر عمل الخلاص الإلهي مجرد حلقة صغيرة في التاريخ للنجم الصغير غير الهام.

الخالق، والسيد، والمصمم، كلها لإله واحد فقط، والعظمة والقوة المطلقة له وحده، فلا أحد بجانب الله لديه مثل هذه العظمة والقوة المطلقة. على هذا النحو، أي محاولة تُعمل لتلصق هذه العظمة والقدسية بشيء آخر، فإن مثل هذا المفهوم يؤدي نحو الصراع مع الكون ككل، فإنه اختلال في تنظيم الكون برمته.

تصور الإسلام

يقرر القرآن، أن رسالة الرسل المخاطب بها الإنسان لم تتغير، بل بقيت بجوهرها، بمعنى أنه وُجد إله واحد وأن الناس يجب عليهم عبادته وحده.

ما معنى «إله واحد»؟ يعني أن الله أعظم من جميع الكائنات، وبالتالي يجب أن يكون هو موضوع رهبة الإنسان. في الحقيقة، لو يفكر الإنسان في مخلوقات الله فسوف يرتعش من صميم كيانه.

فالتجربة تنشئ ضرورة شعوراً بالقدسية، هذا يمكن عزوه إلى أمر عظيم غامض، وهو متعالي ومتجاوز للتخيل الإنساني. هذا الشعور يوجد تعبيره في العبادة حين يسلم الإنسان نفسه للقوة العظمى. فبالنسبة له الله هو الواحد وفقط الله. فلا شريك مع الله في ألوهيته، فلا إله إلا الله.

الإيمان بالله الحق هو مصدر كل فضيلة، والإيمان بالآلهة الزائفة هو مصدر كل شر.

الاعتقاد في شيء أنه مقدس وهو ليس كذلك فإن هذا أصل كل شر. في المصطلح الديني، هذا شرك، الشرك يعتبر ظلم عظيم، والظلم في العربية يعني حرفياً، وضع الشيء في المكان الخطأ، في هذه الحالة، تخصيص القيمة لشيء وهو لا يستحقه. الشرك (الكلمة العربية الأخرى المشابهة لمعنى الظلم) هو أعظم خطأ. لأنه ينطوي على تقديس الأشياء التي في الحقيقة غير مقدسة أو مستحقة للعبادة. فيمنح الآلهة الباطلة المكانة التي يستحقها الإله الأعظم الأوحد.

أعظم إساءة في هذه الممارسة الجائرة هو تبديل تركيز الإنسان في العبادة. فهو يبدأ يعظم كائنات لا تستحق الإجلال والتعظيم. والنتيجة أن الإنسان مُنع من التأييد والنصرة الوحيدة الذي لديه في الكون. فهو ليس قادراً لينال النعم الإلهية المؤيدة. والذي ينكر النعم الإلهية في هذه الدنيا فهو أيضاً ينكرها في الآخرة. لأنه ليس هناك قوة أخرى سوى الله يمكن أن تعطي هذه النعم للإنسان.

الخسارة الإنسانية ليست فقط محصور تأثيرها في الحياة الأخرى؛ بل أيضاً في حياتنا المؤقتة هنا على الأرض. في الأزمنة القديمة منح الإنسان التقديس لكثير من الأشياء غير المقدسة، فكانت النتيجة أنه استمر في معاناة الحرمان من إغاثة الله لقرون عديدة.

أعطى مفهوم الشرك ولادة لكثير من الاعتقادات الشاذة وفرّخ سلسلة كاملة من الخرافات. فمثلاً، البرق أُعتقد أنه صولجان ناري إلهي. وعندما يحدث خسوف القمر أو كسوف الشمس فإنه يعتقد أنه عمل بعض قوى الشر، أو أن بعض الآلهة هُوجمت من قبل قوى الظلام، وهلم جرا.

تقديس المفهوم الشركي قدم مصلحة كبرى للزعماء الدينين، الذين طوروا الخرافات بملازمتها بمجموعه معتقدات دينية كاملة. من خلال

ذلك، بدأوا يستغلون الناس بجعلهم يعتقدون أن قادات الدين هم وسطاء بين الله والناس فرسخوا الفكرة كي ترضيهم، وكانت بطريقة غير مباشرة ترضي الله.

أعظم فائدة حُصدت كانت من قبل الملوك حيث استغلوا هذه العقلية التي تكيفت في الشعب، فهم طوروا مفهوم الملك الإله. في أي مجتمع يعتبر الملك هو الأغنى والأقوى. وهو المميز أيضاً في كثير من النواحي الأخرى عن عموم الناس، فاستغلوا هذا الوضع التمييزي، إذ غرس الملوك في عقول الناس أنهم أعلى من عامة الناس، وأنهم في الحقيقة، نواب الله في الأرض، وقال بعضهم أنهم الرابط بين الله والناس. وآخرون ذهبوا أبعد من ذلك وزعموا أن الله تجسد فيهم على الأرض. وكذلك افترضوا أنهم يملكون قوى فوق الطبيعة. وبالتالي تمكنوا من بسط قوتهم المطلقة على رعاياهم.

عندما استثمر الحكام المفهوم القديم للشرك لوضعهم الاعتباري المقدس، نشأ في طريقهم باطلان عظيمان متزامنان في المجتمع. فالشر الذي يجلب القوة قد بلغ ذروته. كما صاغ اللورد أكتون (١٨٣٤-١٩٠٢): « السلطة تفسد، والسلطة المطلقة تفسد إفسادا مطلقاً» فإذا الشعب لم يستطع تغيير الحكام في الإطار العلماني كي يتخلصوا من اضطهادهم، فكيف يفكرون بخلع أولئك الذين حكموا ظاهرياً كنواب عن الله في الأرض، أو تجسيداً له.

هذا الشر السياسي، والذي سماه المؤرخ الفرنسي هرني بيرين «الاستبداد الإمبراطوري» أصبح عقبة دائمة في طريق كل تقدم. إنه فقط حينما كسر الإسلام سلطة لهذه الإمبراطوريات القديمة أصبح من الممكن فتح الأبواب نحو التقدم البشري.

كتاب هنري بيرين «تاريخ أوروبا الغربية» يعطينا دراسة معلوماتية عن هذا الموضوع.

خلاصة فكر هنري بيرين هو أن الإمبراطورية الرومانية القديمة التي تمددت بجانبي البحر الأحمر، أغلقت كل أبواب التقدم الإنساني من خلال فرض كبت صارم على حرية الفكر، فلولا هذا النوع من الكبت لذهبت الإمبراطورية المطلقة إلى حتفها، وحين يكبل عقل الإنسان ولا يستطيع أن يعمل في جو حر، فحتى بداية التقدم الإنساني لا يستطيع عملها.

ويُضمّن الكاتب أيضاً الفرس كإمبراطورية استبدادية مجرمة. ويجب أن تتذكر أن هاتين الامبراطوريتين سيطرتا على جزء كبير مهم من العالم المأهول فترة من الزمن. وفي ظل الحكم الإمبراطوري، ليس لأحد الحق أن يفكر مستقلاً إذا كان تفكيره يتعارض مع العقائد الرسمية للإمبراطورية. لذلك بعد الفترة الطويلة من القمع الفكري، فإنه لا يمكن أن تحدث بداية حقيقية في البحث العلمي. ببساطة التفكير العلمي لا يمكن أن يُؤيد أثناء امبراطوريات الفرس والروم. فقط عندما النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كسروا قوى الإمبراطورية ـ بأقل قدر ممكن من سفك الدماء – عندها شرعت حرية التفكير، وفُتحت بوابات التقدم العظمى للبشرية.

حرية البحث

يعترف «كارا دي فو» في كتابه المشهور، «تراث الإسلام» (١٩٣١)، بإنجازات العرب، ولكنه مع ذلك يقصيهم لمستوى التلاميذ عند اليونانيين. وأيضاً برتراند راسل، في كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» حيث يرى العرب مجرد ناقلين للأفكار اليونانية، أي أنهم جلبوا المعرفة اليونانية لأوروبا من خلال ترجماتهم.

ولكن هذا ليس عدلاً مع الإنجازات الأكاديمية للعرب. صحيح أن العرب درسوا الأدب اليوناني واستفادوا منه. لكن ما نقلوه إلى أوروبا

كان أكثر بكثير مما أخذوه بأنفسهم من اليونان. والحقيقة أن الأفكار التي أنارت عصر النهضة في أوروبا لم تشكل جزءا من الفكر اليوناني. لذلك التفكير الأوربي كان ينبغي عليه أن ينقل ذلك في وقت سابق بكثير. وما كان لأوروبا أن تضيع آلاف السنين قبل تحقيق نهضتها.

ومن المعروف أن التقدم الذي أحرزه الإغريق كان معظمه في مجالات الفن والفلسفة. ومساهمتهم في مجال العلم -باستثناء استاتيكا الموائع لأرخميدس-كانت في الواقع ضئيلة جدا.

الحقيقة التي لا جدال فيها أن جو الحرية الفكرية ضروري للغاية في البحث العلمي والتقدم العلمي، ولكن مثل هذه الأجواء لم تكن موجودة في أي من بلدان العصور القديمة، ولم توجد في اليونان. فسقراط، على سبيل المثال، أجبر على الانتحار عن طريق شرب الشوكران كعقاب له لتشجيعه البحث الحر بين شباب أثينا. وطُرح أرخميدس أرضـاً من قبل الجندي الروماني في ٢١٢ قبل الميلاد، بينما هو يدرس مسائل هندسية على التراب.

ووفقا لبلوتارخ، في «العادات القديمة لاسبرطة»، تعلمت اسبرطة القراءة والكتابة لأسباب عملية بحتة، وكانت سائر المؤثرات التعليمية كالكتب والأطروحات، وكذلك حوارات الرجال المتعلمين كانت محظورة. ازدهرت الفنون والفلسفة في أثينا الديمقراطية، إلا إن العديد من الفنانين والفلاسفة، من بينهم إسخيلوس، ويوربيدس، وفيدياس، وسقراط، وأرسطو إما إنهم نفوا أو سجنوا أو أعدموا، أو أنهم هربوا.

أتهم إسخيلوس بانتهاك سرية أسرار إليوسينيان الغامضة (التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من الفكر اليوناني)، حُكم عليه بالإعدام على أساس هذا الاتهام، وهذا برهان آخر للحقيقة أن جو التقدم العلمي لم يوجد في اليونان القديمة.

ستتضح الحالة العلمية جيداً قبل العصر العلمي الحديث من خلال مصير البابا سيلفستر الثاني (غربيرت)، الذي كان مشهورا بسعة المعرفة. ولد في ٩٤٥ في فرنسا، وتوفي في ١٠٠٣. وكان ضليعا في اللغة اليونانية واللاتينية، وكان مشهوراً بإنجازاته العلمية في مختلف المجالات.

أُخذ غربيرت إلى برشلونة في إسبانيا في ٩٦٧ من قبل الكونت بوريل وبقي هناك لمدة ثلاث سنوات. وهناك درس علوم العرب وأعجب كثيرا بهم. وعندما عاد من إسبانيا، أحضر معه العديد من ترجمات هذه الكتب والإسطرلاب. وحينما بدأ بتدريس العلوم العربية، والمنطق، والرياضيات، وعلم الفلك وغيره، واجه معارضة شديدة. فالنصارى يعزون تعلمه للفنون السحرية التي تعلمها في إسبانيا، وبعضها بتدريب الشيطان. وأخيرا في مثل هذه الظروف غير المواتية، توفي في ١٢ مايو ١٠٠٣، في روما[1].

من بداية التاريخ المسجل وصولاً إلى زمن الإسلام، لم يكن هناك مثل هذا المفهوم في الحرية الفكرية. وهذا هو السبب في أننا نسمع فقط حالات معزولة من الأفراد في القديم وُهبت التفكير العلمي. ولم ينتشر التفكير العلمي خارج هؤلاء الأفراد لعدم وجود الحرية الفكرية، حيث تم وأد مثل هذا التفكير في مهده.

ولأول مرة في التاريخ، فصل الإسلام المعرفة الدينية عن المعرفة المادية. مصدر المعرفة الدينية، التي دخلت حيز القبول العام، كان الوحي الإلهي، في حين أعطيت الحرية الكاملة للبحث في الظواهر المادية، بحيث يمكن الأفراد التوصل إلى استنتاجاتهم الخاصة بشكل مستقل. يتضمن صحيح الإمام مسلم، ثاني أصح كتاب حجية في الحديث، والذي يعود تاريخه إلى القرن الثاني الهجري، باباً بعنوان: «

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٧ ص ٨٩٩

وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي»[1].

وفي هذا الباب، ذكر الإمام مسلم رواية موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رءوس النخل فقال: «ما يصنع هؤلاء» فقالوا: يلقحونه يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أظن يغني ذلك شيئا» قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: «إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن؛ ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل»[2].

ونفس القصة روتها عائشة، زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، وثابت، وأنس، الذين صاحبوا النبي مدى حياته. أخيرا قال النبي صلى الله عليه وسلم، لزارعي النخل أن يبقوا على طريقتهم، لأنه «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[3].

وفقا لهذا الحديث، يفصل الإسلام القضايا الدينية عن البحث العلمي في شؤون الدنيا، إذ يجب أن يكون هناك التزام صارم بالتوجيه الإلهي. ولكن في البحث العلمي يجب العمل وفقا للتجربة الإنسانية. في الواقع هذه أعظم علامات بمجيء ثورة في تاريخ العلم.

تأثير العرب

يوضح المؤرخ الفرنسي موسيوليبان في كتابه «الحضارة العربية» أنه في العصور القديمة، على الرغم من أن العديد من الدول أصبحت قوية

---

(١) صحيح مسلم (١٢/ ٥١)

(٢) صحيح مسلم رقم ٤٣٥٦

(٣) صحيح مسلم رقم ٤٣٥٨

بما فيه الكفاية للسيطرة على الآخرين -كبلاد فارس واليونان وروما الحاكمة على الدول الشرقية في مختلف الأزمان- كانوا غير قادرين على ممارسة تأثيرهم الثقافي على هذه الدول بأي صورة ملموسة، لا دينهم ولا لغتهم ولا علومهم ولا أيضاً صناعاتهم ترسخت وازدهرت. ليس فقط أن مصر تمسكت بدينها خلال أيام الحكم الروماني، ولكن الغزاة أنفسهم تبنوا الدين والهندسة المعمارية للمصريين. المباني التي شيدت في تلك الفترات كانت نقوشها المعمارية قد وضعت من قبل الفراعنة.

ومع ذلك، فإن الهدف الذي لم يتمكن الإغريق والفرس والرومان من تحقيقه في مصر أمكن تحقيقه من قبل العرب في وقت قصير جداً ودون اللجوء إلى استخدام القوة. كان هذا مع الصعوبات الواضحة في مصر لتبني منهج حياة أمة غريبة وتبني دين جديد ولغة جديدة ضمن هذه المساحة كان ذلك في قرن واحد فقط، وخصوصا أن هذا يعني التخلي عن الثقافة القديمة التي تعود سبعة ألف سنة. نفس التأثير تم بذلة من قبل العرب على البلدان الأفريقية وعلى سوريا وإيران. وانتشر الإسلام بسرعة بين هذه الشعوب. حتى في تلك البلدان التي لم يحكمها العرب أبدا، حيث جاءوا فقط كتجار، انتشر الإسلام فيها بسرعة كبيرة، والصين كونها واحدة من الأمثلة البارزة. لم يتم العثور على سبيل المثال في تاريخ العالم على مماثل لمثل هذا النفوذ التي بذلها الغزاة على المغزوين. وحتى تلك الدول التي كانت مجرد تواصل مؤقت مع العرب تبنت ثقافتهم. وكان الأكثر إدهاشاً أن مجتمعات مثل الأتراك والمغول، الذين غزوا المسلمين، ليس فقط قبلوا دينهم وثقافتهم، ولكن أيضا أصبحوا أنصارهم الأشداء. حتى إلى اليوم، ونحن نرى تراجع روح الحضارة العربية من المحيط الأطلسي إلى نهر السند، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى صحراء أفريقيا، فالدين الواحد واللغة الواحدة لا تزال في هي السائدة -دين ولغة النبي محمد صلى الله عليه وسلم[1].

(١) الحضارة العربية، لموسيوليبان

يوضح موسيوليبان، علاوة على ذلك، أن النفوذ العربي كان على نحو مرئي في الدول الغربية، كما كان في الشرق. إذ اكتسب الغرب من العرب الثقافة، في حين في الشرق أثر النفوذ العربي على كل شيء من الدين واللغات والفنون، والحرف والعلوم. في الغرب لم يتأثر الدين والحرف والصناعات كثيراً. وكان التأثير الأكبر على الفنون والعلوم.

من خلال العرب، التوحيد والحضارة ولدت في ظل نفوذهم وانتشارهم في كل مكان. وظهر تأثيرهم في أجزاء كبيرة من العالم المأهول في ذلك الوقت. وهكذا أنتجت جواً وبيئة حيث البحث العلمي ـــ قائداً لإخضاع الظواهر الطبيعة ـــ يمارس بحرية واستقلالية.

أربع خطوات للحداثة

يؤكد القرآن في مواضع متفرقة على حقيقة أن الدين الذي أنزله الله للبشرية في شكل الإسلام ليس فقط مصدرا للهداية بالمعنى الديني، ولكن هو أيضا نعمة من عدة طرق أخرى (٦: ١٥٧)[١]. وكانت إحدى النعم الكبرى أنها أخذت التاريخ البشري خارج عصر الظلام، وتسبب ذلك في الدخول في عصر النور. ثورة الفكر هذه فتحت الأبواب أمام عدد لا يحصى من المصالح الدنيوية. هذا هو الثاني، الدنيا، جانب من جوانب الثورة الإسلامية التي يصفها المؤرخ الغربي المشهور، هنري بيرين، من حيث وجود الإسلام «غيّر وجه العالم. وأطيح بالنظام التقليدي للتاريخ»[٢].

العصر الحاضر، والذي نعتبره الحديث والمتقدم في عصر العلم والصناعة، والحرية والمساواة هو نتيجة مباشرة لهذا الجانب من الثورة

(١) يقصد قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾[الأنعام:١٥٧] (المترجم)

(٢) تاريخ أوروبا الغربية، لهنري بيرين (٤٦)

الإسلامية وهو ما يسمى في القرآن نعمة. هذه الفترة، مثل معظم التطورات التاريخية الكبرى الأخرى، حدثت على نحو تدريجي إذ أخذت ما يقرب من ألف سنة لتصل إلى ذروتها.

العملية تدريجية يمكن تقسيمها على نطاق واسع إلى أربع مراحل، الثلاث الأولى ترتبط مباشرة مع الثورة الإسلامية. والمرحلة الرابعة تتعلق بها بطريق غير مباشر.

١. فترة النبوة، ٦١٠-٦٣٢.

٢. فترة الخلفاء الراشدين، ٦٣٢-٦٦١

٣. فترة الأمويين والعباسيين، ٦٦١-١٤٩٢ (بما في ذلك اسبانيا)

٤. حدثت الثورة الحديثة في أوروبا، والتي بدأت في القرن الخامس عشر بعد الحروب الصليبية تحت تأثير الحضارة الإسلامية.

الإنسان الحديث

حتى بداية القرن الحالي، فإنه كان المفهوم العام في العالم المتحضر أن سر التقدم كان ببساطة قيادة الإنسان من التقليدية إلى الحداثة. ولكن بعد أن وصل الإنسان إلى وجهته، سقط مرة أخرى فريسة للإحباط. شعوره الآن هو أن يحقق تقدماً حقيقياً، يحتاج الإنسان أن يكون لديه قاعدة فلسفية أكثر عمقاً ليطلق نفسه. وحديثاً نُشرت مقالات مختلفة بشأن هذه المسألة وقد نشرت تحت عناوين مثل «الضحالة هي الجذور» إلخ.

يتناول الكتّاب في العالم الغربي هذه المسألة. وأحد الشخصيات الأكثر بروزا هو وليام كونولي، الذي كتب النظرية السياسية والحداثة.

يقوا الأستاذ كونولي: «مشروع الحداثة بأكمله، على الرغم من نجاحه المذهل، هو إشكالية للغاية. لأن كل المحاولات التي بذلت لملء المكان الذي اضطر لإخلائه من الله في بداية المشروع ـ واستبدل بالعقل

وبالإرادة العامة وجدلية التاريخ -كان من دون جدوى، وكلها انتهى بها المطاف في بنوع من العدمية أو بشكل آخر»[1].

قبل ظهور الإسلام، كان العالم في قبضة الشرك. وقد حُكمت عقول الناس بالأفكار الشركية. وأخذ المخلوق مكان الخالق. وعبد الإنسان آلهة لا تعد ولا تحصى. ونتيجة لذلك فقدت طريقة التفكير بالكلية بوصلتها، وظل الباب مغلقاً أمام التقدم الشامل.

جاء الإسلام إلى الدنيا وكان هدفه الرئيس وضع نهاية للشرك وإعطاء التوحيد مكان الهيمنة. وبعد التضحية العظيمة من جانب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كان الشرك قد اقتلع إلى الأبد، وأعطيت الهيمنة للتوحيد. وكان تأثير هذه الثورة بعيداً جداً، إذ ظل التوحيد مهيمناً بالكلية لما يقرب من ألف سنة. ثم جاء ظهور الحضارة الصناعية الحديثة. وجاءت هذه الحضارة في البداية إلى حيز الوجود في أوروبا الغربية تحت تأثير الثورة الإسلامية. وانتشر تأثيرها لاحقا في جميع أنحاء العالم. الجانب السلبي لهذه الحضارة الغربية هو تركيزها على المادية واستبعاد كل شيء آخر. والجانب الإيجابي هو استمرارها من التأثر بالثورة الإسلامية في تحرير الفكر الإنساني.

رحلة نحو التقدم

كانت هناك أربعة مراكز حضارية قبل مجيء المسيح ـ فارس والصين والهند واليونان. وبعد مجيء نبي الإسلام، بنى الخليفة العباسي المنصور بغداد في عام ٧٦٢. ودعا علماء الدين والمفكرين أن يحضروا من كل مكان، وشجع على تقديم الكتب بلغات مختلفة إلى العربية. فهذا العمل بدأ تحت رعاية الدولة. وفي عام ٨٣٠ أنشأ المأمون له في بغداد بيت الحكمة الشهير، وهو يضم مكتبة وأكاديمية ومكتب ترجمة ومرصد

---

(١) النظرية السياسية والحداثة، لوليام كونولي. (لندن، ١٩٨٨).

فلكي. استمر عمل الترجمة بسرعة وعلى نطاق واسع حيث خلال ثمانين عاما بعد تأسيس بغداد، كان معظم الكتب باللغة اليونانية تم نقلها إلى اللغة العربية. في العصر العباسي، تم صنع الورق على نطاق واسع، لذلك لم يكن هناك ندرة في الورق لكتابة الكتب. وفي القرن العاشر كان هناك أكثر من ٤٠٠،٠٠٠ كتابا في مكتبة قرطبة (إسبانيا)، بينما في أوروبا في ذلك الوقت، وفقا للموسوعة الكاثوليكية، كانت مكتبة كانتربري في أعلى قائمة المكتبات النصرانية بـ ١٨٠٠ كتاباً وذلك في القرن الثالث عشر.

في عهد المأمون أدى علماء فلك واحدة من أعظم عمليات الجيوديسية[1] حساسية ـ قياس طول درجة الأرض. كان الهدف تحديد حجم الأرض ومحيطها على افتراض أن الأرض مستديرة. نُفذ القياس في سهل سنجار، إلى الشمال من نهر الفرات، وبالقرب من تدمر، النتيجة ٥٦٢ ميلاً عربيًا في الطول لدرجة خط الطول ـ وكانت النتيجة دقيقة بشكل ملحوظ، تجاوزت الطول الحقيقي للدرجة في ذلك المكان بحوالي ٢٨٧٧ قدمًا. وهذا من شأنه جعل محيط الأرض ٢٠،٤٠٠ ميلاً وقطرها ٦٥٠٠. ومن بين الذين شاركوا في هذه العملية أبناء موسى بن شاكر والخوارزمي، حيث في وقت لاحق عدلت جداولهم بعد قرن ونصف من قبل الفلكي الإسباني مسلمة المجريطي، وترجمه إدلارد باث إلى اللاتينية في عام ١١٢٦ ، وأصبح هو الأساس للأعمال الأخرى سواء في الشرق أو الغرب. ولا يقل إنجاز الإدريسي الذي كان في وقت مبكر في القرن الثاني عشر، إذ عمل خريطة للعالم أظهر فيها حتى مصدر نهر النيل، والذي لم يكتشف من قبل الأوروبيين حتى القرن التاسع عشر. كل هذه الأنشطة جارية في العالم الإسلامي في الوقت الذي كانت تعتقد أوروبا كلها أن الأرض مسطحة.

---

(١) أقصر خط بين نقطتين (المترجم)

قدم بطليموس، عالم الفلك اليوناني المشهور في القرن الثاني، نظرية مركزية الأرض في النظام الشمسي، في كتابه الشهير «المجسطي». سيطر هذا المفهوم على عقول الناس في جميع أنحاء العالم لمدة ١٥٠٠ سنة، حتى قام كوبرنيكوس وغاليليو وكبلر، في القرن السادس عشر، بأبحاث أثبتت في نهاية المطاف زيف نظرية بطليموس. ولكن المسلمون هم الذين أول من نقلوا إلى أوربا مفهوم كروية الأرض، وغالباً هم الذين صححوا مفهوم أسباب انحسار وتدفق المد والجزر.

بقي التصور الخاطئ حول دوران الأرض سائداً لفترة طويلة من الزمن، وذلك بسبب الخطأ في اعتبار الشيء غير المقدس مقدساً. فالنصارى يعتقدون أن الأرض كانت مجالا مقدساً، كونها مسقط رأس ابن الله (المسيح). وبسبب هذا الاعتقاد، وجدوا الفكرة القائلة أن الأرض هي المركز الذي يدور حولها الكون كله، متوافقاً تماماً مع عقيدتهم الدينية. وفكرة قدسية الأرض جاءت في طريق النصرانية مانعة من أي بحث أضافي. حتى تعرّى الواقع أخيرا مجبراً نفسه عليهم بأن عليكم أن تتوقفوا بالالتزام لهذه النظرية.

تقول الموسوعة البريطانية (١٩٨٤): «وفقا لعلم الكونيات القديم فأن الأرض كانت مركزاً للكون، والإنسان أعلى مخلوق في هذه الأرض، وكان خلاص الإنسان هو الحدث المركزي في السماء والأرض. واكتشاف أن الأرض كوكب واحد وسط كواكب أخرى يدور حول الشمس، والشمس هي فقط نجم ضئيل بين مجرات لا حصر لها في الكون، بهذا هز الفهم القديم للإنسان. إذ الأرض، مقارنة مع مساحات شاسعة من الكون، لم تكن سوى ذرة من الغبار في بنية الكون الضخم، بدأ نيوتن وآخرون في بحث مسألة كيف الإنسان، غبار الغبار، استطاع الاستمرار ليزعم له الامتياز المقدس وأنه كان الهدف والغاية من أفعال الله»[(١)].

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٤ ص ٥٢٢

تمسك النصارى بالمسيح ليكون جزءا من الثالوث المقدس وطوروا مفهوم أن الحدث الأهم في التاريخ الذي حدث على وجه الأرض هو صلب ابن الله لتكفير خطايا الإنسانية. وبهذه الطريقة، جاءت الأرض لتمسك الوضع المقدس في مجموع معتقداتهم. وبالتالي أظهرواّ معارضة شديدة قاسية لأي تفكير يمكن أن يقوض مكانة مركزية الأرض. فكان هذا الاعتقاد عقبة في طريق حرية البحث في النظام الشمسي.

إعطاء غير المقدس كينونة القداسة أغلق الأبواب أمام كل تقدم. فإعطاء القمر صفة القداسة يمنع تغذية فكر الإنسان من محاولة وضع القدم عليه. وإعطاء صفة القداسة للنهر منع الإنسان من التخطيط لإنتاج الكهرباء من قبل اقتحام النهر. وتمسك البقر بصفة القداسة جاء مانعاً للإنسان من قياس أهمية لحمها الغني بالبروتين وجعله جزءا من نظامه الغذائي. كل هذه البحوث والتحقيقات يمكن أن تبدأ فقط عندما تُؤخذ الظواهر الطبيعية من الوضع المقدس إلى المستوى الذي يمكن للإنسان أن يراها كالأمور اليومية العادية.

قبل الإسلام، كانت النجوم من الأشياء المبجلة. ولكن بعد الثورة الإسلامية، تم بناء المراصد وخُضعت النجوم للبحث الرصدي على نطاق واسع، الأمر الذي لم يسبق محاولته من قبل. واعتبرت المعادن كذلك والتي هي جزء لا يتجزأ من قشرة الأرض مقدسة. ولكن المسلمين أخضعوها لأول مرة، بعد أن طوروا علم الكيمياء، للفحص العلمي.

الأرض برمتها بهذه المسألة اعتبرت إله (حتى كان يعتقد أن السماء إله مذكر والأرض إله مؤنث) ومرة أخرى كان المسلمون أول من قاسها لمعرفة قطرها ومحيطها. البحر، أيضا، كان من الأشياء المعبودة، لكن أصبح المسلمون أعظم الرواد في استخدامه كطريق سريع ضخم. فالعواصف والرياح التي جُعلت قوى غامضة، وأجساماً لها رهبة وتبجيلاً. جعلها المسلمون في تدوير طواحين الهواء.

ارتبطت القصص الغامضة مع الأشجار وأصبحت الأشجار أيضا تستحق التبجيل. بدأ المسلمون في دراستها، ونجحوا في إثراء كتاب الحشائش لديسقوريدوس بحوالي ٢٠٠٠ نوعا.

الأنهار، أيضا، مُنحت القداسة واعتبرت كائن حي. فكان البنون والبنات يقربون ضحايا لهذه الآلهة من أجل إرضاءها. ومع ذلك، استخدم المسلمون نفس الأنهار للري عن طريق القنوات، وبذا أعلنوا عصراً جديداً في الزراعة.

كان المسلمون في تلك الأيام متقدمين على الأمم الأخرى عندما طُردوا من إسبانيا، والإسطرلاب الذي تركوه ورائهم كان وسيلة لدراسة الأجرام السماوية، حوله النصارى إلى برج الساعة للكنيسة، لأنهم لم يفهموا استخدامه.

في الحقيقة، ساد الشرك والخرافة في العصور القديمة في جميع أنحاء العالم. وصحيح أيضا أنه من هذا الشرك والخرافة كانت العقبات الرئيسة لكل أنواع التقدم. فكانت الثورة المرتكزة على التوحيد، الذي جاء مع استيقاظ الإسلام، ووضع نهاية كاملة تقريباً للشرك والخرافة للمرة الأولى في التاريخ. بعد ذلك، كنتيجة طبيعية، أخذ تاريخ البشرية في طريق التقدم.

في العصور القديمة، كان هناك عقولاً مبدعة في بعض البلدان، استطاعوا أن يفكروا بشكل مستقل عن بيئتهم. ولكن نظرا للأجواء غير المواتية وللبيئة المعادية في تلك الأوقات، لم تؤتِ جهودهم ثمارها. فذبلت براعم معرفتهم بعيدا قبل أن تتمكن من الإزهار. وحين أنتجت الثورة الاسلامية جواً مناسباً، أُطلق العنان لطوفان هائل من المعرفة التي ظلت مكبوتة منذ آلاف السنين بسبب حاجز الخرافة.

بطليموس الثاني، الذي أصبح حاكم مصر بعد الإسكندر الأكبر في القرن الثالث قبل الميلاد، كان الراعي العظيم للتعلم، أسس مكتبة في الإسكندرية تضمنت حوالي ٥٠٠،٠٠٠ كتاباً حول مواضيع مختلفة. هذه المجموعة، والتي تُعرف في التاريخ باسم مكتبة الإسكندرية العظيمة.

زعم -بالخطأ، كما يحدث - أن هذه المكتبة حُرِّقت بناء على طلب من الخليفة الثاني عمر الفاروق. وفي الواقع، أنه تم تدميرها قبل ذلك بكثير، في القرن الرابع الميلادي، قبل فترة طويلة من مجيء الإسلام. ووفقا للموسوعة البريطانية، «نجت مكتبة امبراطورية الاسكندر المتفككة (القرن الأول قبل الميلاد) واستمرت في الوجود تحت الحكم الروماني حتى القرن الثالث الميلادي... »[1].

والحقيقة هي أن نصف هذه المكتبة حُرق من قبل القيصر يوليوس في عام ٤٧ قبل الميلاد في القرن الثالث، وجاءت الإسكندرية تحت سيطرة النصارى، وبالرجوع إلى المؤسسات الباقية القائمة، فإن الموسوعة البريطانية تنص على أن «المكتبة والمتحف الرئيسي دُمرا خلال الحرب الأهلية في القرن الثالث الميلادي، ومكتبة فرعية أحرقت من قبل النصارى في عام ٣٩١ ميلادي»[2].

ومع هذا العمل نفسه يربط التدمير الأخير للمكتبة مع الفترة الإسلامية وهذا خطأ. في مقالته عن الرقابة يقول: « هناك العديد من الاعتبارات للحرق، وعلى عدة مراحل، فجزء من المكتبة أو كلها في الاسكندرية، تم بحصار القيصر يوليوس في عام ٤٧ قبل الميلاد، وتم

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١ ص ٢٢٧

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١ ص ٤٧٩

تدميرها أيضاً من قبل النصارى في عام ٣٩١ م ومن قبل المسلمين في عام ٦٤٢. وزُعم في الحالتين الأخيرتين، أن الأدب الوثني شكّل خطرا على العهدين القديم والجديد وعلى القرآن»[١].

العزو في الأعلى في تدمير مكتبة الإسكندرية إلى الإسلام ليس له أساس من الصحة. المقتطفين الأولين المذكورين بالأعلى من الموسوعة البريطانية دحضت هذا بشكل واضح. الإسلام بطبيعته يشجع اكتساب المعرفة. فإنه لم يكن من هدفه يوماً قمع أو تثبيط المعرفة.

يذكر فيليب حتّي في كتابه «تاريخ العرب»: «القصة التي أمر الخليفة عمر لمدة ستة أشهر بتغذية العديد من أفران حمامات المدينة بالمجلدات من مكتبة الإسكندرية هي واحدة من تلك القصص التي تجعل الرواية محبوكة ولكن بتاريخ سيء. احترقت مكتبة بطلوموس العظيمة في وقت مبكر من عام ٤٨ قبل الميلاد بواسطة القيصر جيوليوس. ولاحقاً دَمرت المكتبة الفرعية في حوالي ٣٨٩ م نتيجة لقرار من الامبراطور ثيودوسيوس. في زمن الفتح العربي، لا توجد مكتبة مهمة في الإسكندرية ولا كاتب معاصر قدم التهمة الموجهة لعامر أو عمر عبد اللطيف البغدادي، الذي توفي في وقت متأخر ٦٢٩ من الهجرة (١٢٣١ م)، الذي يبدو أنه أول من حبك القصة. لماذا فعل ذلك، إننا لا نعرف. ومع ذلك، تم نسخ روايته وضُخمت لاحقاً من الكتاب»[٢].

تُستند الحضارة الإسلامية على التوحيد وعلى هذا النحو فهي متميزة للغاية عن الحضارات القديمة الأخرى. فقد أعطت الإنسان حرية التفكير، الحرية التي كانت إلى الآن ناقصة تماما. بفضل هذه الحرية، ازدهرت كل فرص التعلم. بينما في الحضارات القديمة، كان عادة ما

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ١٠٨٤

(٢) تاريخ أوروبا الغربية، لهنري بيرين (١٦٦)

يتعرض العلم والناس المتعلمون للاضطهاد. ترتب على ذلك محاولة وضع الحضارة الإسلامية متوازية مع الحضارات الأخرى وهذا بشكل واضح ظلم تاريخي. هذا ليس كل ما في هذه المسألة. الحقيقة هي أنه كان الإسلام، وليست أوروبا، الذي بشر بعصر العلم الحديث. هذا حدث تاريخي لا يمكن إنكاره. وقد اعترف جمعٌ من المؤرخين أنه خلال الحقبة الإسلامية، تم تشجيع العلم بفعالية، حيث ازدهرت جميع مجالات العلم وانتجت علماء وباحثين لهم سمعتهم.

في الكتاب الشامل عن تاريخ الإسلام، «تاريخ كامبردج للإسلام»، الذي انتجه أستاذ هولت ومستشرقون آخرون، هناك مقال في المجلد الثاني، بعنوان «تأثير الأدب الإسلامي في الغرب الحديث» يظهر مدى مقدار التأثير المبذول في الماضي في الإسلام على العلم وحضارة العالم الغربي. ويختتم الفصل بهذه الكلمات: «خلال العصور الوسطى كان الاتجاه بالكامل تقريباً من الشرق إلى الغرب (عندما عمل الإسلام كمعلم للغرب) »[١].

يؤكد مستشرق فرنسي آخر، بارون كارا دي فو، على إنجازات العرب بالقول إن «العرب حققوا أشياء عظيمة حقا في العلوم.» ويستمر في قوله « يجب علينا ألا نتوقع العثور بين العرب على نفس العبقرية القوية، ونفس الهبة من الخيال العلمي، ونفس الحماس، ونفس أصالة الفكر الذي وجدناه في وسط اليونانيين. فعلمهم هو استمرار للعلم اليوناني الذي يحفظونه، وينمونه، وفي عدد من النقاط يطورون ويتقنون. [٢]»

ولكن مونتجمري وات، في كتابه بعنوان «العظمة التي كان اسمها الإسلام»، يقول إن هناك اتجاها للتقليل من عمل العرب واعتبارهم ليس

---

(١) تاريخ الإسلام، كمبردج (لندن)، المجلد. B٢، ص. ٨٨٨-٨٩.

(٢) تراث الإسلام، بارون كارا دي فو، (١٩٣١).

أكثر من ناقلين للأفكار اليونانية. ويقول إن العرب كانوا أكثر بكثير من أجهزة الإرسال، وإن العلم والفلسفة العربية ساهمت إلى حد كبير في تطوير أوروبا[١].

مع إن هذا الكاتب نفسه يجعل نقطة أخرى، والتي هي أكثر انفتاحا للاعتراض على ملاحظة أن العرب كانوا مجرد نقلة؛ إذ يقول: «جاءت العلوم والفلسفة في اللغة العربية إلى حيز الوجود من خلال التحفيز من الترجمات اليونانية.[٢]»

بقدر ما الأفكار العلمية تُقلق، فإن هذا التقرير أن العلم اليوناني وفّر التحفيز للعرب، ليس صحيحا. وليس من الصحيح أيضاً القول أن العرب قرأوا الترجمات اليونانية، مما أدى إلى بدايتهم في التفكير العلمي. الحقيقة هي أن التفكير العلمي جاءهم من خلال القرآن ومفهوم التوحيد. ودراستهم لترجمات الكتب من اللغات اليونانية وغيرها كانت في وقت لاحق، ثم ساروا قدماً لدراسة العلوم والفلسفة من خلال إجراء بحوثهم الخاصة.

قال المؤرخون أنه، بطبيعة الحال، لا يمكن إنكار حقيقة أن العرب كانوا تلاميذة لليونانيين في العلوم والفلسفة، ولكن من الصحيح أيضا أنه بمجرد ما استوعبوا ما كان يمكن استخلاصه من الإغريق، ذهبوا لتحقيق إنجازات هامة[٣].

كان الطب على الأرجح أول علم يوناني جذب العرب لما له من أهمية عملية واضحة. ثم طوروه بوضع منشآت للمستشفيات وللكليات الطبية، والتي لم تكن موجودة في اليونان. كانوا يدرّسونه في كليات

---

(١) العظمة التي كان أسمها الإسلام، مونتغمري وات (لندن)، ص. ٢٣٢.

(٢) المصدر السابق (٢٢٦)

(٣) المصدر السابق (٢٢٦)

العراق، ورافق تدريسه خدمة طبية مزدهرة. كان أول مستشفى تأسس في بغداد تقريباً في عام ٨٠٠ بمبادرة من الخليفة هارون الرشيد، حفظت لنا السجلات تأسيس أربعة مستشفيات أخرى في الربع الأول من القرن العاشر. ويقال إن مستشفى في القاهرة في القرن الثالث عشر كان لديه إقامة ٨٠٠٠ شخصا. ويحتوي على أجنحة منفصلة للمرضى من الذكور والإناث، بالإضافة لتصنيفات الأمراض المختلفة. ويضم هيئة من الأطباء والجراحين والصيادلة والخدم من الجنسين والموظفين الإداريين، وإلى جانب ذلك غرف التخزين والمصلى، وكانت هناك منشآت للمكتبة ولإلقاء المحاضرات[1].

العرب عملوا تطورات في مجال الطب خارقة من خلال أبحاثهم. وكان أول طبيب بارز أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفي (٩٢٣)، المعروف في أوروبا بالرازي. كتب بشكل ضخم جدا في العديد من المواضيع العلمية والفلسفية، له أكثر من خمسين من أعماله لا تزال موجودة. وقد تُرجم أهم أعماله وهو، الحاوي، إلى اللاتينية ويعرف بـ «الكتاب الشامل». وكانت هذه أول موسوعة لجميع العلوم الطبية حتى ذلك الوقت، وبعد وفاته أكمله تلاميذه. فلكل مرض بيّن آراء المؤلفين من اليونانيين والسوريين والهنديين والفارسيين والعرب، ثم أضاف تعليقات على الملاحظات السريرية وأعرب عن الرأي النهائي.

كان أعظم كاتب في الطب ابن سينا. وهو كان واحدا من أعظم شخصيتين عربيتين فلسفتين. كان علو كعبه في الطب نتيجة الجمع بين المعرفة النظرية الشاملة والفكر المنهجي مع المراقبة السريرية الثاقبة. وتُرجم كتابه الضخم «القانون في الطب» إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر

(١) المصدر السابق (٢٢٧)

وكان يستخدم أكثر بكثير من أعمال جالينوس وأبقراط. وسيطر على تدريس الطب في أوروبا على الأقل حتى نهاية القرن السادس عشر. كان هناك ستة عشر نسخة مطبوعة منه في القرن الخامس عشر، واحدة كانت باللغة العبرية، وعشرون نسخة في القرن السادس عشر، ونسخ كثيرة في السابع عشر. وبالتقريب المعاصر كان ابن سينا الكاتب العربي الأول في الجراحة وأدوات الجراحة، وأبو القاسم الزهراوي المتوفي بعد (١٠٠٩) حين بلغ الطب العربي ذروته في أوائل القرن الحادي عشر، استمر فارضاً سيطرته لقرون عديدة. موهبة الملاحظة الدقيقة لم تختف إذ كتب بعض الأطباء العرب في القرن الرابع عشر في إسبانيا تحديداً حول الطاعون كما مارسوه في غرناطة والميريا[١].

عبد الله بن البيطار المتوفي (١٢٤٨) اشتهر كأفضل عالم نبات وعالم صيدلي في إسبانيا، بل في الواقع، في العالم الإسلامي برمته. رحل كمعالج بالأعشاب في إسبانيا وفي جميع أنحاء شمال أفريقيا، ودخل لاحقا في خدمة الملك الأيوبي الملك الكامل في القاهرة وجُعل رئيساً في المعالجة بالأعشاب. من مصر قام برحلات واسعة في جميع أنحاء سوريا وآسيا الصغرى. وأحد اثنين من أعماله الشهيرة، «المغني في الأدوية المفردة» كان في خواص المواد الطبية. والآخر هو «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» عبارة عن مجموعة من «العلاجات البسيطة من الحيوان والنباتات والعوالم المعدنية التي تجسد المعلومات اليونانية والعربية متممة من قبل تجارب وأبحاث المؤلفين». وتبرز باعتبارها طليعة أطروحات القرون الوسطى في نوعها. ما يقرب من ١٤٠٠ مادة، منها ٣٠٠ تحتوي نحو ٢٠٠ نبتة، كانت مبتكرة. وعدد الاقتباسات من المؤلفين حوالي مائة وخمسين، منهم عشرون من اليونان. وتم طبع

---

(١) المصدر السابق (٢٢٨)

أجزاء من النسخة اللاتينية لابن البيطار في أواخر عام ١٧٥٨ في كريمونا[١].

بعد خواص المواد الطبية، وعلم الفلك، والرياضيات، عمل العرب أعظم مساهمتهم العلمية في مجال الكيمياء. حيث أخرجوا الكيمياء من مجال الخيمياء وأعطاه صفة العلم المنتظم المبني على الملاحظة. أدخل العرب في دراسة الكيمياء والعلوم المادية الأخرى التجربة الموضوعية، فكان التقدم الحتمي على التأملات الضبابية اليونانية. ومن خلال العرب دخل العالم لأول مرة إلى المنهج العلمي.

بعد الرازي، جابر بن حيان (٧٢١-٨١٥) وهو في المرتبة العظمى في مجال العلوم الكيميائية في العصور الوسطى. واعترف بوضوح كبير وقرر أهمية التجربة قبل أي كيميائي آخر. في وقت مبكر، حقق إنجازات جديرة بالذكر في كلا الكيمياء النظرية والعملية[٢].

أُعتبرت كتب ابن حيان بوصفها السلطة النهائية في الكيمياء في أوروبا حتى القرن الخامس عشر. كان السلم الأول للكيمياء الغربية الحديثة في القرن الثامن عشر تم إنتاجه من قبل جابر. ومن المعتقد أن جابر كتب ألفي كتاب في علوم مختلفة.وأكثر الكتب العلمية لم تكتب قبل العصر الإسلامي.

هذه ليست سوى بعض الإشارات المتناثرة وغير الكاملة. ومع ذلك، فهي كافية لإظهار أن الإسلام، بعيدا عن كونه معاديا للعلم، هو داعم بقوة للعلم. في العصور القديمة، كان التقليد المناهض للتعلم منصوص عليه من قبل تلك الأديان التي كانت تقوم على الشرك والخرافات. قضى الإسلام على الشرك والخرافة وأسس الدين على أساس التوحيد الخالص. بالتالي، لا يوجد سؤال أن الإسلام أصبح عدو المعرفة.

---

(١) تاريخ العرب لفيليب حتّي (٥٧٥_٧٦)

(٢) المصدر السابق (٣٨٠)

تقدم العلم هو لعنة على الشرك. فالأديان الشركية تحاول أن تعترض طريقه. وعلى العكس من ذلك، يتخذ التوحيد موقفا مختلفا تماماً، فبتقدم العلم يتحقق التوحيد، ويتم إقامة الأمر كله على شكل سوي. وهذا هو السبب لماذا أعطى الدين التوحيدي كل التشجيع للعلم.

الإسلام: محرر العقل

هيمن الشرك في العصور القديمة على المناخ الفكري حيث مال إلى تشجيع انتشار الخرافة في جميع أنحاء العالم. ومثل هذا الجو غير الملائم كان بالضرورة أن لا يؤدي إلى ظهور الأفكار العلمية؛ لهذا السبب لم يكن هناك دولة خلال تلك الفترة يمكن أن يتقدم فيها العلم والتعلم. إلا أنه عندما وضعت الثورة الاسلامية حدا لهذا التسخير القديم من الفكر للشرك بدأت المواقف، بشكل فعال، نحو التغيير.

اليونان القديمة

في اليونان القديمة، حيث كان كل شيء له إله أو آلهة مرتبطة به، وكان التأثير الأكبر على العقل البشري هو من الأساطير، عبارة عن مجموعة من الخرافات التي لا حصر لها حول كائنات مهيبة نبيلة وخالدة وأبطال جبارة. على الرغم من هالة الغموض المحيطة بأصولهم وأفعالهم، فإن الإغريق الأوائل اعتبروا المخلوقات الأسطورية حقائق تاريخية بقت لهم مهابة عظيمة. (تم كتابة مجلدات كاملة حول هذا الموضوع الواسع جدا، بما في ذلك الموسوعة).

شكلت الأساطير اليونانية العنصر الرئيس في معظم الشعر اليوناني والدراما. ولقد أثرت أيضا على تفكير الفلاسفة والمؤرخين بدرجة ملحوظة. وتحول شعراء العصور الوسطى، وتقريباً جميع الشعراء الإنجليز من شكسبير إلى روبرت بردجيس نحو الخرافة لتكون هي ملهمتهم. ولكن هذا الباعث للفنون والآداب، أخفق في تقديم الجو الذي يُمكّن فيه رجال العلم، وبالمعنى الحديث للكلمة، أن يتطوروا.

ربما كان للإغريق الحضارة الأكثر بريقاً في العصور القديمة، لكنها لم تفعل شيئاً لتحريك عمليات التفكير العلمي، الذي جاء لأوروبا في وقت متأخر للغاية. فبلوغ الفكر العلمي أوروبا يرجع بالكلية إلى الحافز المُعطى لهم من قبل المسلمين، حتى وصلوا إلى تلك الغاية، مفهوم الشرك كان مانعا للتقدم. وعلى العكس من ذلك، مفهوم التوحيد أعلن بداية حقبة جديدة كاملة من الحرية الفكرية.

الحضارة الرومانية

تقول الموسوعة البريطانية: «في نهاية فترة ما قبل النصرانية، حققت الإمبراطورية الرومانية الهيمنة على عالم البحر الأبيض المتوسط بأكمله. ومؤرخي العلم يجدون تناقضاً في روما، فهي حضارة معقدة جدا وعلى ما يبدو في الظاهر فالحداثة في سياستها وشخصيتها، وهي قوية جدا في مجالات علم القانون، تقدمية جدا في تقنيات الحرب والصحة العامة، مع إمكانية الوصول المباشر إلى مدونة العلم اليوناني، ومع ذلك فقد أخفقت في إنتاج عالم واحد[١].»

ويستمر المقال في القول إن المؤرخين حاولوا تفسير فشل الرومان الذريع في العلم، ويقترح إلى أنه «ربما البنية الاجتماعية لروما، مضموم إليها التزامها الطويل لأشكال السحر القبيحة، لم يترك مكاناً للاقتناع بالعلم»[٢].

فشل المؤرخون لإنتاج أي إجابة مقنعة عن هذا السؤال. لكن الجواب يصبح واضحا عندما نأخذ في الاعتبار الحقيقة أن الرومان كانوا مشركين. كان فعلا الشرك وعبادة الأوثان هو الذي وقف في طريق تحقيق البحوث والتحقيقات في مجال العلوم. مفهوم قدسية لكل الكائنات الطبيعية منعهم من تحقيق الفتح لهم.

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٦ ص ٣٦٧

(٢) المصدر السابق، المجلد ١٦، ص ٣٦٧

وتنص الموسوعة البريطانية تحت عنوان «تاريخ العلم»: «إن الطريقة الحالية في فهم العالم الطبيعي قد تطورت حديثاً بدرجة عالية. كان من الممكن للحضارات العظيمة في الماضي أن تنجز مستويات عالية من التطور في المعرفة والدين والأنظمة القانونية في ظل غياب كامل لمفهوم العلم كما يُفهم الآن. كانت حضارات مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين والهند ونصف الكرة الغربي وحتى العبرانيين، والشعب الذي يشكل الدين جزءا كبيرا من أساس الحضارة الأوروبية كانوا غير مكترثين للعلم. ورغم أنه في الألفي سنة ونصف مضت ابتدع الإغريق نظاما للتفكر كان على تشابه بالطريقة العلمية، حيث أدى في القرون اللاحقة تقدما بسيطا وراء إنجازهم وفهمهم البسيط. وبالتالي القوة العظمى في العلم والنفوذ المتغلغل في جميع جوانب الحياة هي في التطورات الحديثة الحقيقية.

مع بزوغ فجر العلم في أوروبا جرت العادة وسط فلاسفة اليونان في المدن اليونانية المطلة على الساحل وجزر شرق البحر الأبيض المتوسط، في أواخر القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد أن لا تعرف أعمالهم إلا من خلال إشارات مجزأة واقتباسات موجزة أدلى بها المؤلفون الذين جاءوا في وقت لاحق ربما بمئات السنين[١].

هذه الإشارات المقتضبة هي في الواقع مضللة للغاية. على سبيل المثال، قول الفيلسوف المعروف، طاليس، «الكل من الماء»، ستبدو على إنها عبارة علمية. ولكن حينما تؤخذ كاملة -«كل شيء من الماء، والعالم مليء بالآلهة[٢]» فإنها عبارة خرافية. (كان طاليس الفيلسوف

(١) المصدر السابق، المجلد ١٦، ص ٣٦٦

(٢) المصدر السابق، المجلد ١٦، ص ٣٦٦

الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، أي لا شيء من كتاباته أو كتابة معاصر له بقيت حية. وأسمه مدرج في القانون الأسطوري مع سبعة حكماء).

والحقيقة هي أن كلا الإغريق والرومان، كان لديهم حاجز واحد فقط عرقل مسار العلم، وكان ذلك هو تفكيرهم الشركي. هذا هو في الواقع الذي سلب منهم واقعية العقل، وهو أمر ضروري جدا للتحقيق العلمي. وبالتالي ليس هناك شك على الإطلاق من إحراز أي تقدم في هذا المجال.

رحلة نحو التقدم

كثير من العقول العلمية العظيمة ولدت في العصور القديمة في دولة اليونان في أوروبا، ومن ضمن هؤلاء أرخميدس، الذي خطى خطوات كبيرة في الموائع، وكذلك اخترع آلة بسيطة ـ مضخة المسمار. ولكن من الغريب أن هذه العقول العلمية اليونانية أشرقت فقط لحظة مؤقتة، كالنيازك ومن ثم تلاشت. فشلوا في هداية أوروبا، أو حتى اليونان نفسها، في عصر العلم والصناعة. وجدت فجوة فكرية كبيرة جدا بين علم الإغريق القديم وبين أوروبا العلمية الحديثة. بينما أرخميدس اخترع مضخة المسمار في وقت مبكر عام ٢٦٠ قبل الميلاد، فلم تخترع أول آلة للطباعة إلا في عام ١٤٥٠، من قبل الألماني يوهان غوتنبرغ. فالفترة الفاصلة بين الاثنين هي أكثر من ألف وخمسمائة سنة.

ما هو سبب هذه الفجوة؟ لماذا العلم اليوناني القديم لا يجد له استمراراً سواء في اليونان أو في أي مكان آخر في أوروبا؟ الجواب هو أنه قبل الثورة الإسلامية، كان الجو يتعارض تماما مع البحوث العلمية التي يتم إجراءها بحرية تامة. لم يكن البحث العلمي موجوداً حتى حدثت الثورة من قبل الإسلام القائم على التوحيد، حيث زال جميع العقبات من

مسار التقدم العلمي. وهذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يكن فيها مثل هذا التحرر الفكري.

لكي يكون التقدم العلمي ذو فعالية فيجب أن يكون ذو عملية مستمرة. عمل العلماء اليونان، ونظرا للظروف غير المناسبة في تلك الأوقات، لا يمكن أن يحدث تقدماً في هذا المسار. فأشرق للحظات ثم اختفى من المشهد. ثم في القرن السابع الهجري، عندما وضعت الثورة الاسلامية حدا لعصر الخرافة، قدمت بذاتها العديد من الفرص الملائمة للبحث العلمي، والذي استمر بعد ذلك في خط متوال وصولا إلى العصر الحديث.

بسبب الجو السابق غير الملائم، اقتصر عمل علماء اليونان إلى حد كبير في مجال النظرية ولم يجروا تجارب عملية. على سبيل المثال، كتب أرسطو اطروحات في الفيزياء، ولكن طوال حياته لم ينفذ تجربة واحدة. في حين أن العلماء اليونان ساهموا بشكل كبير في مجال المنطق، ولم يحققوا أي مساهمة جديرة بالاهتمام في مجال العلوم التجريبية. وجاءت البداية الحقيقية للعلم عندما ولدت روح البحث الحر لدى الإنسان. تجلت هذه الروح في العصور القديمة بشكل متقطع في جانب الأفراد، ولكن نظرا للبيئة المعادية لم يتطور الأمر على نطاق واسع.

ظهرت البيئة المحفزة حقاً في البحث الحر فقط بعد الثورة التوحيدية في الإسلام. إذ تم تغيير الجو كله على الفور من قبل الإسلام، مما مهد الطريق لعمل بحث مستمر دون عائق. فالمنهج العلمي في التفكير بدأ من مكة المكرمة. ثم انتشر إلى المدينة المنورة ودمشق، ومن هناك ذهب ليجعل بغداد مركزاً عظيماً للفكر الإبداعي. ومن بغداد وجدت طريقها إلى إسبانيا وصقلية وإيطاليا، وأخيراً انتشرت في جميع أنحاء أوروبا. ومضت على الانتشار، وفي نهاية المطاف كان تغيير العقل العالمي.

وهذه الرحلة التطورية للتعلم لم تكن ممكنة قبل الثورة الاسلامية. وقبل ذلك، كان التفكير العلمي حدث فقط على المستوى الفردي، أو في أماكن معزولة، ويرجع ذلك إلى الجو العدائي الذي أخفق في عملية الرقي. ولأول مرة أعطى الإسلام للعالم جوا عزز فيه نشاط التقدم العلمي.

اعتقاد تقديس ما ليس بمقدس

كتب الانثروبولوجي «لارس أولف ناثان سود بريلوم»، ملاحظة لعمل فرغ منه في عام ١٩١٣ أن مفهوم القداسة شكّل المفهوم المركزي للدين. ومنذ ذلك الحين تم دراسة تاريخ الأديان على نطاق واسع بعد أن تم كتابة عدد كبير من الكتب العلمية حول هذا الموضوع باللغة الألمانية، والفرنسية، والإنجليزية وغيرها من اللغات. وعلماء الدين متفقون، باستثناءات قليلة جدا، أن القداسة هي مبدأ أساسي من مبادئ الدين، لذا فإن عزو القوى أو الصفات الغامضة لبعض الأشخاص أو الأشياء لا يكون أبداً للمخلوقات أو الأشياء المألوفة. ولا يمكن تفسير هذه الصفات الغامضة بالتصورات أو المبادئ العقلانية العامة[1].

مفهوم القداسة ليس شيئاً خيالياً؛ بل هو متجذر بعمق في طبيعة الإنسان. والشعور هذا يؤدي بحق عندما يكون موجهاً بالتحديد لله. هذا الشعور يحدث متكررا لدى الإنسان إلا إن هذا الشعور الإنساني يتم تحويله في الواقع الفعلي لشيء غير مقدس. هذا الشعور الفعلي لتقديس المقدس الذي كان ينبغي أن يوجه نحو الخالق، وجد طريقه بدلا من ذلك نحو بعض الخلق.

السبب وراء ذلك هو غياب الله عن الأبصار. فهم غير قادرين على رؤية صانعهم، والإنسان يعطي انتباهه إلى أبرز شيء في محيطه المباشر.

---

(١) موسوعة الدين والأخلاق ناقشت هذا الأمر بالتفصيل في مقالتها «المقدس»

ثم يبدأ يقدسه لكي يعبده كما لو كان مقدساً حقاً. هذا هي النفسية التي أنتجت في العصور القديمة ما يسمى بالشرك في المصطلح الديني، وعبادة الطبيعة في اللغة الأكاديمية. هذا الإلحاح الجذري للتعبد في تقديس المقدس دفع الإنسان من الداخل ليقدس شيئاً ما. ونتيجة لذلك، بدأ عبادة أي شيء، مما جعل المرئي العظيم يؤثر عليه كالنجوم والمطر والحيوانات والنباتات والماء والنار. مع إن مفهوم الله تعالى موجوداً كما علّم الأنبياء الإنسان. ولكن هذا المفهوم تشوه ليعني أن الله «كان الرب في السماء الذي قد انسحب من التفاصيل المباشرة لحكم العالم. هذا النوع من الإله العظيم، الغيبي، أو الإله الخامل فوّض كل الأعمال على الأرض لهذه «الأرواح الطبيعة»، والتي كانت قوى، أو تجسيد من قوى الطبيعة».[1]

يتفق علماء الدين بشكل عام أن مفهوم القداسة هو قوة متماسكة في جميع الأديان. فلجعل الدين متماسكاً يجب تخصيص شيء فريد من نوعه أو شخص أو شيء غير عادي بجعله مقدساً وإقامته على قمة مجموع معتقداته. وهذا لا يمكن تفسيره من حيث العموم والمبادئ العقلانية.

التفاعلات الإنسانية الأكثر شيوعا مع الأشياء المقدسة يتمثل في الخوف والانبهار. فقط المقدس هو الذي يمكن يحقق أعمق احتياجات الإنسان وتطلعاته. فالتقديس الذي يظهره الإنسان لأي شيء يُعتقد أنه مقدس يتشكل في أمرين الثقة والرعب. وهناك أيضا رأي مفاده أن قبول شيء ما كإشارات قدسية فهي حدود للجهد البشري، حيث موروث الإنسان قيود تمنعه من مزيد من البحث.

الأشياء التي يبجلها الإنسان متباينة في الطبيعة، كالحجارة، والحيوانات، والبحار، والشمس، والقمر، والملوك، والشخصيات

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٢ ص ٨٧٧

الدينية الأخرى. وأي شيء يُعتقد أنه مقدس فإنه يُعبده، ويقرب له القربان. ويؤدى له الشعائر من أجل إرضائه والهروب من عقابه واستجلاب رغباته.

تقول الموسوعة البريطانية: «القدسية تتجلى في تقديس المسؤولين كالكهنة والملوك. وفي تقديس أماكن مخصصة كالمعابد والصور، وفي الكائنات الطبيعية مثل الأنهار، والشمس، والجبال، أو الأشجار. الكاهن هو عامل خاص في مذهب ديني طقوسه تمثل الفعل الإلهي. وبالمثل، الملك أو الإمبراطور هو وسيط خاص بين السماء والأرض ويُسمى بأسماء مثل «ابن السماء» أو «يد الله»».[١]

تسرد الموسوعة البريطانية أسماء علماء الأنثروبولوجيا الهامين الذين يعتقدون أن القدسية مكون أساس في الدين: «لارس أولف ناثان سود بريلوم»، و«رودولف أوتو»، و«اميل دوركهايم»، و«ماكس شيلر»، و«جيراردوس فاندر ييو»، و«دبليو بريدي كريستيمسن»، و«فريدريك هيلر»، و«جوستف منستشنج»، و«روجر كايلوز»، و«ميرسيا إيليد»[٢].

علماء الدين العصريين كانوا محقين في قولهم إن الفكرة الأساسية وراء الدين هي مفهوم القداسة، وهم يزعمون أنه شعور طبيعي. ومع ذلك، عندما يكون شيء آخر بجانب الله الواحد فإنه يجعل له القداسة، فهذا هو التطبيق الخاطئ للحقيقة وللشعور الطبيعي. وهذا هو السبب الجذري لجميع أنواع الشرور. عندما يعتقد الإنسان أن غير المقدس مقدساً، فإنه يغلق كل أنواع الأبواب أمام التقدم.

هناك جانبان لاعتقاد غير المقدس مقدساً. الأول هو اعتبار كل ما في الطبيعة مقدساً، في حين الجانب الثاني هو تقديس بعض الأفراد بجعلها

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٦ ص ١٢٤

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٦ ص ١٢٤

كائنات مقدسة. كلا الشرين وجدا في جميع أنحاء العالم منذ العصور القديمة. وقد كان هذا هو السبب الأكبر في أن يبقى تفكير الإنسان غير علمي.

مفهوم القداسة متجذر بعمق في النفس البشرية. ولتعريفها في عبارة مثل علم النفس أمر صعب للغاية، والكلمات المستخدمة للتعبير عن الحالات النفسية العميقة هي في كثير من الأحيان رمزية غير واقعية. وأود ببساطة أن أوافق من حيث المبدأ أن مفهوم القداسة هو النقطة المحورية للدين. ومع ذلك، وجود القداسة حقيقي وليس وهمي، كما يحملنا علماء الدين المعاصرين على اعتقاد ذلك.

الحقيقة أن رغبة العبادة هي غريزة طبيعية، فكل إنسان ولد على ذلك. وبسبب هذا الرغبة الداخلية العميقة يسعى الإنسان بنشاط للركوع أمام شيء ما يعتبره مقدسا. وهناك شكلان يجد فيهما هذا الشعور تعبيره: الأول هو التوحيد، والآخر هو الشرك.

عندما يعتقد الإنسان بأن الله الواحد المقدس ويعبده كإله، فإنه يوجه مشاعره إلى المكان المناسب. وفي الحقيقة، هو الله الذي يملك صفة القدسية. «اعتقاد الله الواحد الأحد المقدس هو إذن يعترف بالحقيقة العظيمة».

ولكن الخطأ الذي يرتكبه الإنسان هو أنه يعبد ويقدس أي شيء يجده بارزاً في هذا العالم، أو أي شيء يجده مختلفاً عن نفسه، يتخيله مقدساً. هذا هو الاستخدام الخاطئ للشعور الصحيح. وهذا ما يعطي لغير الله ما ينبغي أن يكون لله وحده فقط. ويُعرف هذا في المصطلح الديني بالشرك، أو بلغة عامة، بالخرافة.

وكان هذا الخطأ في التقديس للأشياء المجردة بدلا من الله نفسه، هو الأمر الذي حال دون ظهور العلم في الماضي لآلاف السنين. عندما نؤمن

بإله واحد، فلا تنشأ أي مشكلة علمية أو فكرية بهذا الإجراء، لأن الله متجاوز إدراكنا المادي ومجالنا الوظيفي. إنه متجاوز السماء، التي لا يستطيع الإنسان أن ينفذ من خلالها.

من ناحية أخرى، فإن الأشياء المادية التي تُعتبر مقدسة سقطت في مجال الفعل الإنساني. وعندما هذه الأشياء تُحاط بهالة من الغموض المقدس، فإنهم يفترضون تعالي مكانتها عن أن تكون مسخرة للبحث العلمي. إنه بالتأكيد لابد من عمل غزو فكري لهذه الأشياء فالعلم كائن في بداياتها.

كل الأشياء غير الله هي مجرد مخلوقات. عُرفت بشكل عام بالظواهر الطبيعية. هذه الظواهر هي التي توفر الأساس للعلم. ودراستها وقهرها والسيطرة عليها وهو ما يقصد بالإجراء العلمي.

من العصور القديمة أُعتبرت الظواهر الطبيعة على مستوى عالمي مقدسة. بهذا النحو، وبعيداً عن إخضاع الأشياء، فإنها كلها أصبحت أشياء للعبادة. كان هذا التشويه الفكري، الذي حال دون إجراء العلم العملي في الماضي لآلاف السنين. فُتح باب التقدم فقط عندما غيرت ثورة التوحيد الفكر الإنساني وأسقطت الطبيعة من مكانتها القدسية.

المثال

الشرك ظاهرة في العصور القديمة في جميع أنحاء العالم، ويقتصر الآن بشكل رئيس في شبه القارة الهندية، حيث يتركز في النباتيين، وهو لا يزال موجوداً بقوة في حياتهم. ومع ذلك، فقد حان أن ينظر إليه على أنه عقبة أمام تطبيق نتائج البحث العلمي الحديث.

كيف أصبحت العقبة الكبيرة واضحة، فقط في عام ١٩٦٧ حينما قال العالم البارز الدكتور سواميناثان، مدير المعهد الزراعي الهندي، نيو دلهي، وجهة نظره بشأن التغذية المعروفة في مقابلة مع صحيفة إنجليزية

يومية. قال الدكتور سواميناثان متحدثا لممثل الأمم المتحدة: « إذا لم يتم التصدي لمشكلة سوء التغذية وجوع البروتين حالاً؛ فإنه ينبغي على الهند أن تواجه خطر الإعاقة العقلية على نطاق واسع في العقدين التاليين». فهو وضّح ذلك حينما لم يكن مفهوم التوازن الغذائي جديداً، وأهميته في النمو الفكري للتو أُكتشف بيولوجياً.

قال الدكتور سواميناثان: «من الواضح الآن أن الدماغ البشري يصل من ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من وزنه الكامل بحلول سن الرابعة، وإذا كان الأطفال لا يحصلون على البروتين الكافي خلال هذه «الفترة الحرجة» فإن الدماغ لا ينمو بشكل صحيح،» وقال إن الدراسات المقارنة على مجموعات عرقية مختلفة الذكاء يجب في المستقبل أن يُرى من هذا المنطلق أيضا. إذا لم تؤخذ مشاكل سوء التغذية وجوع البروتين تحت السيطرة فورا، فربما سنشهد خلال العقدين القادمين تزايدا حادا في القوى الفكرية في الدول المتقدمة، باستثناء عملية الإعاقة العقلية في بلادنا. والتأخر كل يوم في مكافحة جوع البروتين لدى الشباب يمكن أن يؤدي إلى إيجاد أكثر من ١٠ مليون نسمة من «الإعاقة العقلية.» وأضاف: «سيحدث ضررا كبيرا بالفعل في السنوات الأخيرة » وقال الدكتور سواميناثان ردا على سؤال عن الحل لهذه المشكلة: «ينبغي أن يتم توعية الجماهير بـ «بروتين الوعي» من خلال العمل الحكومي وتعبئة الرأي العام».

وأوضح أن البقول يشكل المصدر البروتيني الأكثر أهمية في النظام الغذائي النباتي، في حين أن المنتجات الحيوانية مثل الحليب فبروتيناته ذات نوعية أفضل. إن احتياجات البروتين يجب أن تُقييم سواء من حيث الكمية والنوعية. ففي مكونات البروتين حوالي ٨٠ حمض أميني لازمة للنمو الطبيعي. وقال إن النقص في بعض الأحماض مثل لايسين والميثيونين كان شائعا في النظام الغذائي النباتي، في حين أن زيادة الايسين

في الجوار كان سبب الأمراض في بعض المناطق حيث كانت هذه الحبوب الغذاء الرئيس لهم. ورغم أن هناك استهلاكا أكبر في المنتجات الحيوانية للرغبة فيها، فإنتاجها مكلف لأن الكثير من الطاقة كان يضيع في تحويل المنتجات النباتية إلى الغذاء الحيواني[١].

بعد نشر هذه المقابلة، ذكرت اكسبرس الهندية خارج الافتتاحية عنوانـًا «جوع البروتين»، وجاء فيها: ... عندما قررت حكومة الائتلاف أن تسير نحو السياسة الشاملة لدعم أسعار الحبوب الغذائية، كان من الصعب أن يُظن أن يكون هناك «جوع البروتين» في ضوء امدادات وفيرة من الحبوب. وقد أشار الدكتور سواميناثان كمنصب مدير معهد البحوث الزراعي الهندي إلى أن الإفراط في الاعتماد على الحبوب يمكن أن يؤدي إلى وضع حتى الأشخاص ذوي التغذية الجيدة أن يُعانون من سوء التغذية. وبالإضافة إلى إنهم قد يعانون من الإعاقات الجسدية بسبب حرمانهم من البروتينات. وبجانب التأثير النفسي من هذا، ووفقا للدكتور سواميناثان، فأن القدرة العقلية للأطفال لن تتطور بشكل صحيح. وعلى ضوء هذا، فإن إعادة النظر في السياسات الزراعية الحالية أمر ضروري. ولكن القيود الداخلية التي يجب على الحكومة أن تشرعها هي أيضا كثيرة. وأولا وقبل كل شيء، فهي مكلفة للغاية لتحويل المنتجات الزراعية إلى بروتين حيواني. وعلى الرغم من أن الحكومة أجرت حملة للغذاء المتوازن ولارتفاع استهلاك اللحوم والبيض والأسماك، إلا إن الناس كانوا بطيئين في تغيير عاداتهم الغذائية[٢].

تفاعل الناس بقوة مع بيان الدكتور سواميناثان، حتى إن بعض المتطرفين طالبوا باستقالته، قائلين إنه لا يصلح لرئاسة المعهد الوطني.

---

(١) استيت مان (نيو دلهي)، ٧ سبتمبر ١٩٦٧

(٢) أنديا أكسبرس (نيو دلهي)، ٧ سبتمبر ١٩٦٧

في ضوء رد الفعل السلبي هذا، ما كان من سواميناثان أي خيار سوى أن يصمت. وهذه المسألة أصبحت موضوعا مغلقا.

وكان السبب في قوة رد الفعل الشعبي أنه حسب الدين الهندي التقليدي، أن أخذ الحياة هو أسوأ الخطايا الممكنة. وبما إن الكائنات الحية يجب أن تُقتل لإنتاج الغذاء غير النباتي، فالنباتي أصبح له منزلة اليوم. والبقرة، على وجه الخصوص، يجب ألا تُذبح، لأنه في هذا السياق الديني، هو حيوان مقدس. وسمى «ريج فيدا» البقرة آلهة[١].

وبهذا يتضح كيف أصبحت جوانب معينة من الديانات الشركية عقبة أمام التقدم البشري.

الهند غنية بالموارد والفرص. وعلى الرغم من هذه الوفرة، فإنها لم تصبح دولة متقدمة. ويتجه اللوم أساساً لهذه القيود الشركية، التي تعيق مسيرة التقدم. فإذا تحررت الدولة من كل القيود غير الواقعية فإن الهند ستضع قدميها على طريق التقدم.

ظهور العلم

الفترة من القرن السادس إلى القرن العاشر الميلادي عرفت في تاريخ أوروبا باسم العصور المظلمة. هذه هي الفترة التي كانت فيها أوروبا بعيدة عن التحضر. «بالنسبة لأوروبا كانت فترة همجية وظلام فكري»[٢].

كان مصطلح «العصور المظلمة» معمول به فقط في أوروبا؛ وحينما كانت أوروبا مغلفة بظلمة العصور المظلمة، فإن جميع أنحاء العالم الإسلامي مشرق ببهاء ضوء الحضارة. كما ذكر برتراند راسل في كتابه

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ٢٠٦

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ٣٨٠

«تاريخ الفلسفة الغربية»: «من الهند إلى إسبانيا، ازدهرت حضارة الإسلام الرائعة»[1].

هذه الحضارة الإسلامية، التي دخلت أوروبا عبر صقلية وإسبانيا، عملت تأثيرا قويا هناك، لدرجة أن الطلاب من أوروبا الغربية بدأوا في المجيء لتلقي تعليمهم في الجامعات الإسلامية في إسبانيا. وكثير من العالم الإسلامي بالمثل ذهبوا إلى أوروبا. عندما أدرك الأوروبيون أن المسلمين قد رحلوا متقدمين بمسافات طويلة في العلم، شرعوا في ترجمة الكتب التي كتبها علماء المسلمين إلى اللاتينية. تقول الموسوعة البريطانية: «معظم الأدب الكلاسيكي الذي حفّز النهضة الأوروبية تم الحصول عليه من ترجمات المخطوطات العربية في المكتبات الإسلامية.[2]»

وقد اعترف بشكل واضح في العصر الحديث، عدد كبير من العلماء، على سبيل المثال، غوستاف لوبون، وروبرت بريفولت، جي أم روبرت، مونتغمري وات، وهلم جرا، أن الأبحاث والاكتشافات للعرب مهدت الطريق نحو العلم الحديث في أوروبا. وسيكون من الصحيح القول إن هذه حقيقة معروفة عالميا. والنقطة الوحيدة التي يجب أن نختلف فيها أن الحدث سجّل بـ«تاريخ المسلمين» ينبغي أن يأتي تحت عنوان «التاريخ الإسلامي». فالحدث الذي يُنسب إلى الناس يجب بدلا من ذلك أن يُنسب إلى الله.

بعض الأمثلة

في العصور القديمة بعض الأشياء اعتبرت مقدسة وفقا لمجموعة من المعتقدات الشركية التي سادت. هذه العقلية أغلقت الباب أمام التفكير

---

(١) تاريخ الفلسفة الغربية. برتراند راسل (٣٩٥)

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٥ ص ٦٤٦

المستقل حول موضوع الظواهر الطبيعية. ثم جاءت الثورة التي أحدثها التوحيد. ولأول مرة في تاريخ البشرية تكوّن الجو المناسب لحرية البحث. ثم بدأ دراسة كل شيء من دون أي تردد. أسست ثورة التوحيد الأساس الأول الحقيقي للتفكير العلمي المبني على أسس منهجية. وكان يُفترض، أن يتم تنفيذ البحث العلمي قبل هذا، ولكن بسبب الجو غير المناسب، لم يرحب به لا إقراراً ولا اعترافًا. وبدون هذا، لا يمكن إجراء أي تقدم في هذا المجال.

يعتبر غاليليو (١٤٤٢) بصورة عامة مخترع التلسكوب. ولكن الحقيقة هي أنه قبل وقت طويل من عصره، سبق أن قدم أبو إسحاق بن جندب (٧٦٧) ملحوظات عن السماء. وكان قد وضع قواعد معينة لمراقبة الأشياء البعيدة، ووفقا لتلك القواعد، كان قد اخترع أداة تلسكوبية. وكان هذا التلسكوب الأولي الذي تم تطويره من قبل غاليليو، فكان ممهداً الطريق للتلسكوب العصري الكهربائي المكتمل الآن بدرجة عالية.

أساس العلم الحديث هو الملاحظة. ولكن، في العصور القديمة، منعت عدة أنواع من المعتقدات الخرافية الطريق لمثل هذا النشاط. ومع ذلك فقد فهم جابر بن حيان (٨١٧) أهمية الملاحظة، واستخدم الاستنتاجات المبنية على الدراسات العلمية في ذلك الوقت، والحسابات المكتوبة والتي نُقلت إلى أوروبا مع الترجمات. اتجه التفكير نحو تطوير هذه الأسس حتى تشكل أسس العلم التجريبي كما هو معروف اليوم.

وكان أول شخص في التاريخ مضى قدما في تطوير نظرية القصور الذاتي للأجسام المادية هو علي حسن بن هيثم (١٠٢١). هذا الاكتشاف وصل لأوروبا، حيث خضعها العلماء لمزيد من التمحيص، وتم صياغتها في وقت لاحق بكثير، كقانون نيوتن للحركة، وهي أن كل جسم

يستمر في حالته من السكون أو الحركة المنتظمة في خط مستقيم، إلا بقدر ما يُجبر من قبل قوى خارجية لتغيير تلك الحالة. ثم مرة أخرى كان بن هيثم هو الذي اكتشف أصلا أن مسار شعاع الضوء أو موجة حركية أخرى في اجتياز مسافة بين أي نقطتين فإنه يسلك المسار الذي يحتاج في أقل زمن ممكن. هذا الاكتشاف في وقت لاحق أصبح يعرف باسم مبدأ فيرما في الزمن الأدنى.

عمر الأرض

لم يكن العلماء قادرين على الاتفاق على تاريخ ظهور الإنسان على الأرض. ومع ذلك، فقد اكتشفوا بعض الهياكل العظمية البشرية، التي يعتقدون أنه يعود تاريخها إلى عشرة آلاف سنة قبل المسيح. والعلماء لا يقبلون التأكيدات التي أدلى بها الكتاب المقدس حول هذا الموضوع. وفقا لتواريخ ظهور الجنس البشري التي وردت في سفر التكوين، فإن مجيء آدم إلى العالم بسبع مئة وثلاثين سنة قبل المسيح. والتقويم اليهودي، الذي يتبع المعلومات الواردة في العهد القديم، يضع تواريخ بدقة متناهية. في النصف الثاني من النصرانية عام ١٩٧٥ يتوافق مع بداية ٥٧٣٦ سنة من خلق العالم. ووفقاً للعلم الحديث، فإن هذا الأمر غير مقبول على الإطلاق.

وكما يظهر من الروايات الإنجيلية، فإن النصارى اختصروا الحياة الزمنية في الأرض في حدود بضعة آلاف سنة. الخطأ في هذا الحساب هو من جهة النظر العلمية، حيث ظهر إلى النور في القرن الثامن عشر الجيولوجي العظيم جيمس هوتون، عندما قام بتحقيقاته وقال إنه كرس كل حياته لدراسة نشأة الأرض وصخورها، والتي أظهرت أن الأرض في شكلها الحالي قد تطور على مدى ملايين السنين.

في وقت لاحق أكدت ملحوظات تشارلز ليل نظرية هوتون. فكان المجلد الأول من كتابه الشهير «مبادئ الجيولوجيا» والذي نُشر أول مرة

في عام ١٨٣٠. هذا الكتاب إلى حد كبير مسؤول عن اختفاء الخط الزمني الإنجيلي من كل مناقشة جادة. «في الواقع، كان كتاب ليل المسؤول إلى حد كبير في إقناع العالم بأسره أن الكتاب المقدس يمكن أن يكون خاطئاً، وفي بعض النواحي، لا يمكن للفكر أن يتصوره[١]».

عملت المفاهيم المنصوص عليها في الكتاب المقدس كعوائق حالت دون التقدم العلمي في أوروبا. فأي شخص يتجرأ على تقديم نظرية أخرى غير تلك المعتمدة من قبل الكنيسة يخشى أن يتعرض للعقاب الشديد بحجة أن نظريته كانت مدنسة. ولكن، في الإسلام، مثل هذه المفاهيم غير الواقعية لم تكتسب أبدا انتشارا. وهذا هو السبب لما لم تحدث معارضة دينية عندما بدأ البحث العلمي في إسبانيا الإسلامية.

العلوم اليونانية

بدأ عصر التقدم الحديث في أوروبا بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر. ويشار إلى هذا العصر عموما على أنه عصر النهضة، وهو ما يعني إحياء، أو ولادة جديدة. ويربط الأوروبيون عصر النهضة مع اليونان، البلد الأوروبي. في الواقع، هم يقدمون العصر الحديث في أوروبا كإحياء لأفكار العصور اليونانية القديمة، ولكن الحقيقة هي أن أوروبا مرت بفترة من الصحوة وليست ولادة جديدة أو إحياء. وكانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ أوروبا يحدث مثل هذا. والآن قبل العلماء أن عصر النهضة في الغرب هو هدية مباشرة من العرب. يكتب بريفولت: «نحن مدينون بعلمنا للعرب الذي لا يقتصر على الاكتشافات المذهلة للنظريات المبتكرة؛ بل العلم مدين بقدر كبير إلى الثقافة العربية. الذي يعود إليهم الفضل في وجوده[٢]».

(١) الكون الذكي. لفريد هويل (٢٩)

(٢) بناء الإنسانية (١٩٠)

ويذهب إلى القول: إنه من المحتمل جدا أنه لولا العرب، لما نشأت الحضارة الصناعية الحديثة على الإطلاق[1].

تقول الموسوعة البريطانية(١٩٨٤) إن المكتبات شكلت السمات الهامة للمجتمع الإسلامي. وكان هناك عدد من المؤسسات التي تمتلك أكثر من مئة ألف كتاب. معظمها من الأدب الكلاسيكي الذي دفع النهضة الأوروبية لتقتنيها من ترجمة المخطوطات العربية في المكتبات الإسلامية[2].

يرى البعض، إن إنجازات العرب هي في أحسن الأحوال نقلهم العلوم اليونانية إلى أوروبا من خلال الترجمات. يضع البروفسور حتّي هذه الكلمات: «هذا التدفق (للثقافة اليونانية) أُعيد توجيهه إلى أوروبا عن طريق العرب في إسبانيا وصقلية، حيث ساعدت في خلق عصر النهضة في أوروبا[3]».

والصحيح أن العرب ما أخذوه من الفلاسفة اليونانيين لم يكن العلم التجريبي بل الجدل النظري. وبعبارة أخرى، ما ورد من اليونان لم يكن العلم ولكن الفلسفة. العلم، كما فهمنا الآن لم يكن موجودا أبدا في اليونان. العلم، أو المعرفة القائمة على التجريب، هي اختراع المسلمين. كان المسلمون أول من أحرز المعرفة من خلال الملاحظة، ومن ثم انتقل إلى الدول الأخرى، وخاصة تلك الواقعة في أوروبا.

قال برتراند راسل بصورة صحيحة: «كان للعلم منذ زمن العرب، كان لديه وظيفتان: الأولى: تمكّيننا من معرفة الأشياء. والثانية: تمكّيننا من فعل الأشياء. أما الإغريق فقد كانوا، باستثناء أرخميدس، يهتمون

(١) بناء الإنسانية (٢٠٢)

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٥ ص ٦٤٦

(٣) تاريخ العرب لفيليب حتّي (٣٠٧)

بالناحية الأول فقط ... والرغبة في استخدام العلم للأغراض العلمية من خلال الخرافات والسحر[1]».

يذهب إلى القول: «بالنسبة للمثقفين في عصرنا، يبدو من البديهي أن الحقائق يجب أن يتم التأكد منها بالملاحظة وليس بمشاروة نصوص قديمة. لكن هذا مفهوم جديد برمته قلّ أن وُجد قبل القرن السابع عشر، فأرسطو ـ مثلاً ـ يؤكد أن عدد أسنان المرأة أقل من عدد أسنان الرجل، ما يظهر ـ رغم أنه تزوج مرتين ـ أنه لم يُكلف نفسه عناء النظر في أي من زوجتيه ليبرهن مقولته[2]».

استشهاد آخر عن أمثلة أخرى من هذا النوع، يلحظ راسل أن أرسطو قدم العديد من التأكيدات حول أشياء دون ملاحظتها على الإطلاق، وقد استمر أتباعه في تكرارها دون وضعها على محك الملاحظة.

من الضروري للعلماء من الملاحظة والتجربة على الأشياء بعمق ليكون لديهم معرفة صحيحة عن طبيعتها. لكن باعث الجو لمثل هذه الإجراءات لم يكن موجوداً بين الإغريق أو في الدول الأخرى القديمة. لأن الكائنات الأخرى غير الله لديها صفة القدسية، وضعوا لها هالة من الغموض وأصبحت مقدسة في أعين الناس. وهذا أدى إلى أن أصبح السحر والخرافة وعبادة غير الله سائدة على نطاق واسع.

هذه المفاهيم الخاطئة الخطيرة وقفت في طريق البحث العلمي وحالت دون البحث في طبيعة الأشياء. عندما يعتقد الناس أن الأحداث تجري بواسطة السحر، أو أن الظواهر الطبيعية لها خصائص إلهية ذو طابع غامضٍ، فلا يمكن التفكير بتطوير ما يؤدي إلى البحث عن طبيعة هذه الأشياء. في مثل هذا الجو، من الطبيعي أن مثل هذه العقلية ستتقدم وتزحف نحو السحر والخرافات.

---

(١) أثر العلم في المجتمع لبرتراند راسل (٤١)

(٢) أثر العلم في المجتمع لبرتراند راسل (١٧)

والعرب في العصور القديمة كانوا يعتقدون مثلهم بعبودية الخرافات. وبالنسبة لهم أيضا، كما هو حال الأمم الأخرى، فقد أصبح العقل مغلقاً. ولكن عندما أحدث الإسلام بينهم الثورة الفكرية، تلاشت هذه العقلية المغلقة سريعاً. وبدأوا ينظرون إلى الأشياء كما هي، في حين كانوا قبل هذه الثورة ينظرون إلى الكائنات نفسها على أنها مقدسة وغامضة.. ومن هذه الثورة الفكرية، توّلد بين العرب التفكير العلمي لأول مرة في تاريخ البشرية. ومن خلال تطوير هذا الخط من التفكير، أصبح هم الناس العطاء. إذ منحوا للعالم كله ما في العصر الحديث، المُسمى العلم.

العلوم الفيزيائية

يخبرنا أرنولد توينبي ـ المؤرخ الإنجليزي المشهور في القرن العشرين ـ بأن العلم هو اسم آخر لاستغلال الطبيعة. ثم يطرح سؤالا: لماذا استغرق الإنسان وقتا طويلا للسيطرة على الطبيعة واستغلالها وهي كانت موجودة في عالمنا منذ ملايين السنين. هو بنفسه يعطينا الجواب: الطبيعة للإنسان القديم لم تكن مجرد كنز دفين من «الموارد الطبيعية»، لكنها إلهه، «الأرض الأم». والنبات الذي ينشأ من الأرض، والحيوانات التي تجوب سطح الأرض، والمعادن المخبأة في أحشائها، كلها شاركت في ألوهية الطبيعة، لذلك كل فعل الظواهر، الينابيع والأنهار الطبيعية والبحر والجبال والزلازل والبرق والرعد. كان هو الدين البدعي للبشرية جمعاء[١].

عندما تعتبر الطبيعة كائن معبود، فإنه لا يمكن، في الوقت نفسه، أن ينظر إلى هذا الكائن لاستغلاله واستكشافه والسيطرة عليه. واشارة الى الحقيقة التاريخية المذكورة أعلاه، يعترف توينبي أن العصر الذي كانت فيه الطبيعة مقدسة سيقت إلى نهايتها فقط مع بدء التوحيد. إذ أعاد مفهوم

---

(١) توينبي، أُقتبس من «Reader's Digest» مارس، ١٩٧٤

التوحيد الطبيعة لوضعها السفلي بدلاً من وضعها الإلهي العلوي لكونها مجرد جزء آخر من خلق الله. الآن، بدلا من الاعتقاد أن ظواهر الطبيعة كائنات معبودة، فإنه يعتقد أنها جاءت ككائنات للقهر والإخضاع.

مفهوم التوحيد الذي جاء به جميع الأنبياء في الماضي لم يزل خطاباً على المستوى الفردي لم يصل إلى مرحلة الثورة العامة. وصلت أخيرا الحركة المبنية على أساس التوحيد لمرحلة الثورة فقط من خلال جهاد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. بعد هذا، الرغبة في اعتبار الطبيعة مقدسة تراجعت لدرجة أنها لم تعد موجودة على هذا النحو؛ وكان هذا نتيجة لازمة لمثل هذه الثورة. حيث بدأ الإنسان ينظر إلى الطبيعة بهدف استكشافها واستغلالها. هذه العملية تطورت بطريقة إيجابية على مر القرون، أحياناً تتباطأ، وأحيانا تتسارع، ولكنها استنهضت أخيرا في العصر العلمي الحديث.

تذكر الموسوعة البريطانية في مقالتها « تاريخ العلوم الفيزيائية» إن العلم اليوناني سقط نحو الهاوية بعد القرن الثاني الميلادي، لأن الرومان لم يكونوا يعبئون به. «الضغوط الاجتماعية والاضطهاد السياسي والانحياز ضد الفكر لآباء الكنيسة دفع القلة المتبقية من العلماء والفلاسفة اليونان إلى الشرق. وهناك وجدوا ترحيبا، وعندما ظهر الإسلام في القرن السابع الميلادي حفّز الاهتمام بالمواضيع العلمية والفلسفية. وقد حفظت معظم النصوص العلمية اليونانية المهمة في الترجمات العربية. وعلى الرغم من أن العرب لم يغيروا أسس العلم اليوناني، فهم قدموا عدة مساهمات هامة ضمن إطارها العام، وعندما الرغبة في اليونان أحيت العلم في أوروبا الغربية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وتحول العلماء إلى إسبانيا الإسلامية للنصوص العلمية. وأسفرت موجة من الترجمات (من العربية إلى اللاتينية) في إحياء العلم في الغرب ... وصل العلماء في العصور الوسطى إلى مستويات عالية من

الرقي وإعداد الأسس للثورة العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر»[1].

يؤكد موسيوليبان في كتابه، «حضارة العرب»، أن العلوم العربية لم تصل أوروبا من خلال الحروب الصليبية، ولكن عن طريق الأندلس وصقلية وإيطاليا. عام ١٣٣٠، تم إنشاء معهد للترجمة تحت رعاية ريمون من تاليتالا، حيث يتم من خلاله تقديم الكتب الشهيرة من اللغة العربية إلى اللاتينية، ومن هذه الترجمات فتح عالم جديد كلي في أوروبا. واستمر هذا العمل من الترجمة وصولا إلى القرن الرابع عشر. وترجمت ليس فقط أعمال الرازي، وابن سينا، وابن رشد، ولكن أيضا جالينوس، أبقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وإقليدس، وبطليموس، الخ حيث ترجمة من العربية إلى اللاتينية. والدكتور جويلكيرك، في كتابه عن تاريخ هذه الفترة، يذكر أكثر من ثلاثمائة كتاب ترجمت من العربية إلى اللاتينية.

أعترف علماء غربيون آخرون أكثر صراحة بهذه الحقيقة التاريخية. على سبيل المثال، كتب بريفولت قائلاً: وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، كل ذلك كان غريبًا تمامًا عن المزاج اليوناني أن يذهبوا الى عمل الملاحظة والبحث التجريبي. وجورج سارتون، المؤرخ الشهير للإنجازات العلمية، يقول إن النجاح الأكثر أهمية والأكثر تميزا يكمن في تعزيز النشاطات الأخيرة وهذا ما جاء في النهاية ما ندعوه بالعلم فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح البحث الجديدة، ولطرق الاستقصاء المستحدثة، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان. وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي.

روح الاستكشاف هذه سادت حتى القرن الثاني عشر، ونُقلت إلى أوروبا عبر العرب. وفي الواقع، العلم الحديث هو أعظم إرث للحضارة الإسلامية.

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٤ ص ٣٨٥

كانت أكبر أهم مساهمتين في الإسلام في هذا الصدد هما: أولا، إزالة أي عقبة عقلية يمكن أن تكون حاجزاً أمام التقدم، وثانيا، إطلاق عصر جديد من التقدم على أساس عملي.

إزالة العقبة العقلية يعني إزاحة الأشياء من قاعدتها المقدسة. هذه المهمة - بلا شك هي الأكثر صعوبة - وقد أجريت بنجاح خلال فترة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين الذي خلفوه.

على الرغم من أن البداية العملية تحققت في المرحلة الأولى من الإسلام، إلا إن تطور منهجها جرى خلال العصر العباسي مع إنشاء بيت الحكمة في عام ٨٣٢. اكتسب هذا العمل زخما كبيرا خلال الحكم العربي في إسبانيا وصقلية. وأخيرا، وصل إلى أوروبا، حيث أعطته دفعة أولى نحو الثورة الصناعية. ومن المسلم به عموما أن التقدم الحديث وتشعباته مرتبط بالثورة الصناعية، وفي الحقيقة، يمكن القول أن كل التقدم الذي جاء هو من أثرها. الثورة الصناعية في حد ذاتها هو اسم آخر لاستغلال الموارد الكامنة في الأرض. فمثلاً، استخرج الإنسان الفحم ثم حوله إلى طاقة. وسخر قوة المياه المتدفقة وحولها إلى كهرباء. واستخرج المعادن من تحت سطح الأرض وحولها لآلات. وهذه هي الطريقة التي جاءت بها الثورة الصناعية إلى حيز الوجود.

الآن، لماذا تم ذلك الآن مع إن هذه الموارد كانت متوفرة على الأرض منذ زمن سحيق، لماذا لم يكن الإنسان قادر على الاستفادة منها قبل مجيء الإسلام كي ينشأ حضارة متقدمة؟ هناك إجابة واحدة فقط: كان الشرك عقبة كأداء في طريقه.

ما هو الشرك؟ هو عبادة الظواهر الطبيعية. قبل زمن نبي الإسلام، في كل فترة سجلت في التاريخ، كان الإنسان يعبد الظواهر الطبيعية،

ويعتقدها مشبعةً بالألوهية. وجميع الحضارات اليونانية القديمة - المصرية والرومانية والفارسية - جميعها كانت شركية في عقائدها. كل الأشياء البارزة في هذا العالم - الأرض، والأنهار، والجبال، والشمس، والقمر، والنجوم - كلها كانت أشياء لعبادة الإنسان. كان الإسلام الوحيد القادر على إزاحتها من ركيزة العبادة. عندها فقط أمكن انطلاق فكر جديد والذي يعرف الآن باسم الثورة العلمية.

مساهمة المسلمين في العلوم

جو البحث الحر ضروري في تقدم العلم. وكان مثل هذا الجو في الأزمنة الماضية نادرا للغاية، وذلك بسبب ما صنعه الإنسان من أنواع مختلفة من المعتقدات. وفي تلك الأيام كان هناك كثير من الشخصيات الذكية والعقول العلمية التي اكتشفت حقيقة معينة خلال تأملها الدقيق في موضوع ما، ولكن هذه العقول واكتشافاتها تكون مناهضة لهم لأنهم وجدوا أن ذلك الأمر يشتبك مع معتقداتهم الخرافية. هذا هو السبب في أن الفكر الجديد الإبداعي لا يمكن أن يحرز أيَ تقدم.

من أكثر الأمثلة شهرة في قمع الأفكار الجديدة في العصور القديمة إدانة الفيلسوف اليوناني الشهير سقراط، والحكم عليه بالموت، عن طريق شرب الشوكران في عام ٣٩٩ قبل الميلاد، حيث اتهم بتجاهل الآلهة التي يعبدها الأثينيين، وإحداثه بدعا جديدة في الدين، وإفساده لشباب أثينا.

ومثال آخر حدث في وقت متأخر من القرن السابع عشر، كان ذلك من غاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢)، عالم الفلك الإيطالي الذي أساء للكنيسة عن طريق تأييده وجهة نظر كوبرنيكوس بأن الكواكب تتحرك حول الشمس. وقد حكمت عليه محكمة دينية وألقي في السجن. وعندما رأى أن مصيره الموت، اضطر للتراجع قبل الاستجواب. راكعـًا مع وضع كلتا يديه على

الكتاب المقدس، وقال إنه تراجع بصورة رسمية عن نظريته حركة الكواكب حول الشمس فهي «بعيدة المنال». وليس فقط رفض هذه النظرية، لكنه قال إنه يعتبرها «بغيضة».

لم يكن هذا مجرد حادث معزول، ولكنه كان عرضا لمرض فكري أنشأه علماء النصارى في تلك الأوقات. ظل البحث عن الحقائق الجديدة واكتشاف أسرار الطبيعة كلأ محرم عليهم لعدة قرون. حيث شُنع بهذه الأنشطة وجُعلت كالسحر الأسود وأنها جزء من التعاليم الشيطانية. في مثل هذه الظروف، كان من المستحيل لعمليات البحث والاستكشاف أن تحقق أي نجاح. في العصور الوسطى كان واجباً على للمسلمين وحدهم أن يعطوا دفعة لمثل هذا العمل، وبفضل القرآن تم إزالة هذا النوع من الحواجز العقلية التي وقفت في طريق الناس من أتباع الديانات الأخرى، مثل غاليليو.

بدأ اتخاذ الموقف المناسب نحو المسائل العلمية وتشجيعها لأول مرة بعد الثورة الإسلامية. حيث سارت هذه العملية دون عائق، مما أدى في نهاية المطاف إلى اكتشافات العصر الحديث.

النظام الشمسي

عالم الفلك الذي قام بدراسة النظام الشمسي وقدم نظرية مركزية الشمس للمرة الأولى كان إغريقياً، المعروف باسم أريستارخوس ساموس. توفي في عام ٢٧٠ قبل الميلاد. ومع ذلك، فإن هذه النظرية بأن الشمس كائنة في المركز والأرض تدور حولها، لم تكتسب شعبية في تلك الأزمان المبكرة.

ثم جاء عصر بطليموس، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، مثّل النظام الفلكي البطليموسي الأرض كمركز ثابت في الكون، تدور حوله الشمس والقمر والنجوم والكواكب الأخرى.

ظهرت نظرية مركزية الأرض في الكون لتكون متوافقة مع المعتقدات النصرانية التي تم صياغتها بعد يسوع المسيح. هذه المعتقدات أُعطيت الختم النهائي بالموافقة عليها في مجلس الكنيسة الشهير الذي عقد في نيقية، وهي مدينة في آسيا الصغرى، في عام ٣٢٥ ميلادي بعد قبول المسيحية من قبل قسطنطين الكبير (٢٨٠-٣٣٧)، انتشر الدين في جميع أنحاء الأراضي الرومانية الراسخ الآن بقوة. رعى النصارى، على وجه الخصوص، نظرية بطليموس. واسدلت ستارة الظلام على نظرية مركزية الشمس لأريستارخوس.

تقول الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) عن مركزية الأرض: «لم يكن هناك مجال آخر لنموذج علم الكون، والذي استمر يُدرس ويستخدم في كل مكان تقريبا حتى القرن السابع عشر.[(١)]»

إلى عام ١٤٩٥ لم يكن كوبرنيكوس قد وصل إلى استنتاج أن الأرض ليست مركز الكون. وبعد فترة طويلة من البحث المكرس في الدراسات الفلكية، اضطر إلى استنتاج أن الكواكب تدور حول الشمس. ولكن، خوفا من معارضة الكنيسة، قال إنه امتنع عن نشر استنتاجاته حتى عام ١٥٤٣.

ومع ذلك، لم يعاني المسلمون من خطأ اعتبارها مقدسا، فهي غير مقدسة، فكانوا في موقف يمكنهم من أن يفكروا في المسائل ذات الأهمية العلمية بعقول مفتوحة، وبطريقة أكاديمية بحتة. وحينما وجدوا أن نظرية مركزية الشمس كانت أكثر عقلانية، قبلوها دون أي تردد.

كتب إدوارد مكنال بيرنز أن نظرية مركزية الشمس التي وضعها أريستارخوس(٣١٠-٢٣٠ قبل الميلاد)، على الرغم أنه كُتب عليها النسيان لمدة أربعة مائة سنة، إلا إنها أصبحت اليوم حقيقة ثابتة. هذا بعد

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٨ ص ١٠١٣

قرون عديدة من تفكير الناس الذي سيطرت عليه نظرية مركز الأرض لبطليموس.

جميع المواضيع التي وضعها المسلمون الاسبان لم تبلغ درجة عالية من الكمال كالمجال العلمي. في الحقيقة، في هذا المجال كانت نجاحاتهم ليس لها مثيل في التاريخ. فهم تميزوا في مجالات علم الفلك، والرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، والطب الخ. كتب مكنال بيرنز:« على الرغم من تبجيلهم لأرسطو، فإنهم لم يترددوا في انتقاد رؤيته عن الكون وأنه مجالات أحادية المركز، حيث الأرض في المركز، وأقروا احتمال أن تدور الأرض حول محورها وتدور حول الشمس»[1].

وصل المسلمون إلى الفرضية الصحيحة لعمل النظام الشمسي وكان ذلك ممكناً فقط بسبب أن الإسلام قوّض جُدر قيود التفكير التي كانت بمثابة عائق أمام تقدم فكر الإنسان. وحينما أُزيح هذا الحاجز المصطنع عن الطريق، بدأت قافلة الفكر الإنساني تسير في رحلتها حتى الوقت الحاضر بسرعة لا يمكن تصورها. حيث جلبتنا في النهاية إلى مآثر علمية مذهلة من القرن الحالي.

الطب

كما إن الإنسان في كل عصر قد يعاني من الأمراض، لذا كان علم الطب موجودا دائما بشكل أو بآخر. مع إنه في العصور القديمة لم يصل علم الطب إلى مستويات عالية من التقدم كما حدث في العصر الإسلامي وحدث أخيراً في العصر الحديث.

أُعتقد أن بداية علم الطب، كانت بداية لا يستهان بها، جاءت في اليونان القديمة من طبيبين عظيمين جدا ولدا في اليونان القديمة هما أبقراط وجالينوس. أبقراط عاش في القرنين الخامس والرابع قبل

---

(١) الحضارة الغربية لإدوارد (نيو يورك، ١٩٥٥) ص ٣٦

الميلاد. ومع ذلك، فإن المعروف عن حياته قليل جدا. ويقدر المؤرخون في العصور المتأخرة أن أبقراط ربما ولد في ٤٦٠ قبل الميلاد وتوفي في ٣٧٧ قبل الميلاد. ومن ناحية أخرى، يشكك بعض المؤرخين حول كونه شخصية تاريخية. كما تم التساؤل عما إذا كتب في الفلسفة والطب التي يفترض أن يكتب فيها أم أنها كُتبت من قبل شخص آخر ثم في وقت لاحق نُسبت إليه»[١].

ويعتبر جالينوس ثاني أهم فيلسوف وفيزيائي في هذه الفترة من العصور القديمة. ولد على الأرجح في ١٢٩ م وتوفي في ١٩٩م. واجه جالينوس معارضة شديدة في روما، وأُبيدت معظم كتاباته. كما إن بقية كتاباته كادت تُفقد مع الأجيال القادمة لو لم يكن العرب قد جمعوها في القرن التاسع وترجموها إلى اللغة العربية. ووصلت الترجمات العربية لاحقًا إلى أوروبا، في القرن الحادي عشر، حيث تم ترجمتها من العربية إلى اللاتينية. لخصت الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) مقالها عن جالينوس: «ولا يُعرف إلا القليل عن جالينوس سوى السنوات الأخيرة»[٢].

إنها حقيقة أن اليونان القديمة أنتجت بعض العقول الجميلة جدا وبعض التفكير العالي جدا في هذا المجال. لكن فيما يتعلق بمصير كل من جالينوس وأبقراط تبين أن الجو في اليونان القديمة كان لا يفضي إلى صعود هؤلاء الناس إلى الفضيلة الواجبة، ولا إلى نمو الطب كعلم. فأنواع مختلفة من المعتقدات الخرافية كانت عائقة في طريق حرية البحث؛ على سبيل المثال، عزو الأمراض لقوى غامضة، وتقديس أشياء كثيرة، مثل النباتات التي لديها خصائص علاجية.

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٨ ص ٩٤٢ــ٤٣

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٧ ص ٨٥٠

جاء علم الطب إلى حيز الوجود في اليونان القديمة قبل حوالي ٢٠٠ سنة قبل العصر النصراني وازدهرت لآخر قرنين من الزمان. وبهذه الطريقة، امتدت الفترة كلها على مدى حوالي أربع أو خمس مئة سنة. هذا العلم لم يشهد أي تقدم لاحقاً في اليونان نفسها. وعلى الرغم من أنه بلد أوروبي، إلا إن اليونان لم يساهم بأي شيء في انتشار العلوم الطبية في أوروبا، أو في الطب الحديث في الغرب. هذه الحقائق هي برهان أن الجو في اليونان القديمة لم يكن مواتٍ لتقدم الطب.

الطب اليوناني جاء إلى حيز الوجود من قبل بعض الأفراد (فكل الجهود كانت على المستوى الفردي، حيث أن المجتمع لم يعطه اعتراف عام) وظلت مخبأة بعيدا في كتب مغمورة لمدة ألف سنة بعد ولادته. فقط عندما ترجمت هذه الكتب إلى اللغة العربية في العصر العباسي (٧٥٠-١٢٥٨)، وتم تحريرها من قبل العرب مع الإضافات الأصلية الخاصة بهم، أصبح من الممكن لهذا العلم أن يجد طريقه إلى أوروبا، مما يمهد الطريق لعلوم الطب الحديث.

السبب في ذلك هو أنه قبل الثورة الإسلامية، كان العالم قد جرفته المعتقدات الخرافية والوثنية. كانت البيئة في تلك الأوقات غير ملائمة بحيث كلما قام أي فرد بعمل بحث أكاديمي أو علمي، فإنه على يقين أنه لن يتلقى أي تشجيع؛ بل في أكثر الأحيان، كان عليه أن يواجه العداء الشديد. في الواقع، أي مسعى علمي على المستوى الفردي يتبع بملاحظة من السلطات، ويتم قمعها بسرعة وبصرامة. في هذا الوضع الذي عادة ما يربط فيه المرض وعلاجه بالآلهة والآلهات، فأي إغراء للناس يجدونه في التداوي بالمنهج العلمي؟ فقط عندما جاءت الثورة التوحيدية للعالم في أعقاب الإسلام فُتح الباب للتقدم الطبي الذي شهد ذروته في العلوم الطبية الحديثة.

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء؛ إلا الهرم [1]». وهذا القول من النبي صلى الله عليه وسلم إعلان بافتتاحية الثورة. وسرعان ما أعلن للعالم هذه الحقيقة عن الطب؛ بدأ التاريخ يتشكل وفق ذلك بطرق عملية كثيرة.

المثال

يعتبر مرض الجدري واحد من أكثر الأمراض خطورة في العالم. وهو مرض شديد العدوى، يتميز بحمى وظهور بقع صغيرة تترك ندوباً على شكل حفر. وتنطوي الأعراض على برد، وصداع، وألم في الظهر. وتظهر البقع تقريباً في اليوم الرابع. هذا هو المرض القاتل. حتى لو نجى أحد من هذا الهجوم، فإن الجلد يتشوه بشكل دائم.

وفقا للسجلات الحالية، تم تحديد هذا المرض في مصر عام ١١٢٢ قبل الميلاد، وذكر أيضا في الكتب الهندية القديمة المكتوبة باللغة السنسكريتية. في الماضي اجتاح هذا المرض العديد من البلدان في شكل أوبئة خطيرة. وسقط آلاف من الناس فريسة لهذا المرض في فترة ترجع إلى ١١٥٦ قبل الميلاد. كان ضريبة هذا المرض من حياة الإنسان، وهناك دليل مرئي بظهور علامات بثرة في وجه مومياء الفرعون المصري رمسيس الخامس، الذي توفي في ذلك العام. (وعثر على جثته المحنطة داخل الهرم). وحتى ذلك الحين، أخذت آلاف السنين لكي يتم دراسة هذا المرض المخيف علميا[2].

والآن نحن نعلم أن الجدري مرض معد ناتج عن عدوى فيروس، وقد تم اكتشاف علاجا له يمكن تفادي هجماته، وتؤخذ الاحتياطات المناسبة في وقت مبكر.

---

(١) انظر السلسلة الصحيحة (٥١٨). المترجم

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٩ ص ٢٨٠

ولكن عقب ظهور الإسلام في نهاية القرن التاسع اكتشفت هذه الحقيقة الطبية لأول مرة. كان الاسم الأول، الذي برز في التاريخ فيما يتعلق بهذه هو الطبيب العربي المعروف، الرازي (٨٦٥-٩٢٥)، الذي ولد في مدينة الري في إيران. وفي بحثه عن العلاج لهذا المرض، بَحثه من وجهة نظر طبية بحتة، وكتب أول كتاب عن هذا الموضوع سماه، «الجدري والحصبة». وقد ترجم إلى اللاتينية، اللغة الأكاديمية في أوروبا القديمة، في عام ١٥٦٥ في مدينة البندقية. وترجم لاحقا إلى اليونانية ولغات أوروبية أخرى، وبالتالي انتشر في جميع أنحاء أوروبا. وترجم إلى الإنجليزية، ونشر في لندن في عام ١٨٤٨، تحت عنوان: أطروحة عن الجدري والحصبة.

اعترف الباحثون أن هذا هو أول كتاب طبي عن الجدري سُجل. وقبل ذلك، لم يكن أحد قد أجرى ـ في أي وقت مضى ـ بحثًا حول هذا الموضوع.

إدوارد جينر (١٧٤٩-١٨٢٣)، الطبيب الإنجليزي الذي أصبح مخترع اللقاح، بعد قراءته كتاب الرازي قاده ذلك إلى عمل بحث سريري عن المرض. ومضى في أبحاثه على مدى عشرين عاما، وأنشأ في نهاية المطاف العلاقة بين الجدري وجدري البقر. وفي عام ١٧٩٦ قال إنه نفذ أول تجربة عملية له في التلقيح، وتكللت بالنجاح، وسريعًا انتشرت هذه الممارسة على الرغم من المعارضة العنيفة من بعض الجهات، في عام ١٩٧٧ تم الإعلان من قبل الأمم المتحدة للمرة الأولى في التاريخ أنه قد تم استئصال الجدري.

والسؤال الآن الذي يطرح نفسه لماذا انقضت هذه المدة الطويلة بين الاكتشاف الأولي للمرض وبين المحاولة الأولى في بحثه طبيا بهدف إيجاد علاج له. كان السبب هو في انتشار الشرك، هذه عقيدة التي تجعل الشيء مقدسا وهو غير مقدس، أو تعزو الألوهية لغير الإلهي.

كتبت الدكتور ديفيد فيرنر: «في معظم الأماكن في الهند، يعتقد الناس أن هذه الأمراض سببها غضب الآلهة مع أسرهم أو مجتمعهم. وتعبر الإلهة عن غضبها من خلال الأمراض. ويعتقد الناس أن الأمل الوحيد لعلاج لهذه الأمراض هو تقديم القرابين لها من أجل إرضاءها. فهم لا يطعمون الطفل المريض ولا يهتمون به لأنهم يخشون إن هذا سيزعج الآلهة أكثر. لذا يصبح الطفل المريض ضعيفا جدا فإما أن يموت أو يأخذ وقتا طويلا ليحصل على الشفاء. هذه الأمراض سببها عدوى فيروسي. ومن الضروري أن يُعطى الطفل الكثير من المواد الغذائية للحفاظ على قوته حتى يتمكن من محاربة العدوى.

عندما جاء الإسلام للعالم، نفى مثل هذه المعتقدات الخرافية عن المرض، معلنا بعبارات لا لبس فيها أنه لا شيء قادر على إلحاق الضرر أو النفع للبشرية إلا الله. فالخالق الله الواحد الذي لديه مثل هذه السلطة، وكل ما سوى الله فهو مخلوق لله وعبد له. بعد الثورة الإسلامية، عندما اكتسبت هذه الأفكار أرضية لها، بدأ الناس يفكرون بحرية وبشكل مستقل عن كل الخرافات. عندئذ فقط أصبح من الممكن إجراء البحوث الطبية للمرض من أجل اكتشاف الأدوية المناسبة.

فقط بعد هذه الثورة الفكرية حان للعالم أن يجعل الجدري موضوعا للبحث. عندئذ فقط أصبح من الممكن لمثل هؤلاء الناس كأبي بكر الرازي وإدوارد جينر أن يعلوا وينقذوا العالم من هذا المرض المخيف من خلال اكتشاف علاج له.

كان الحاجز الحقيقي لإيجاد العلاج هو القبول بشكل عام لمجموعة المعتقدات الخرافية على أساس عبادة الأوثان. هذه المعتقدات أزاحها الإسلام بعيدا ولأول مرة في التاريخ.

علم اللغة

بسبب المعتقدات الخرافية قضت آلاف السنين في حالة من الركود حتى تم إلحاق اللغة واللسانيات بالعلم. يعلق الدكتور اللغوي إرنست غيلنر تعليقاً رائعاً حول هذا الفشل: «الفلسفة اللغوية لديها رؤية عكسية حيث تعامل الفكر الحقيقي كحالة مرضية، والفكر الميت كنموذج من الصحة».

في العصور القديمة كان يعتقد بوجه عام أن الكتابة كانت هبة من الله، كما في المفهوم الهندي، حيث أعتبر «معهد العلوم الإندونيسي براهام » أن الكلمات وشكل الخطاب مُنحت للإنسان من قبل الآلهة، لذا فهم مأمورون بأعلى تبجيل للآلهة. جون ستيفنز، في كتابه الخط المقدس في الشرق، يعرض البحوث التي أجراها، مما يدل على أن مفهوم الخط «مقدسا» استمر لعدة قرون. اختلف العلماء في أصل الخط سواء في مصر، والصين، والهند، أو أي مكان آخر. ومع ذلك، فكرة واحدة كانت سائدة وهي: أن الكتابة إلهية. وهي في جوهرها مقدسة. كانت الكتابة خطاب للآلهة.

المسألة المدونة تاريخياً أن اللغات البشرية كانت هدفا للخرافات منذ آلاف السنين. وكان من المفترض أن بعض اللغات يكون لها أصل إلهي، وأن الناطقين بها يتمتعون بوضع خاص عن الآخرين. على سبيل المثال، كان من المفترض ولقرون أن تكون اللغة اليونانية متفوقة على غيرها من اللغات، وتكون اليونانية لغة الآلهة، بينما تلك اللغات الأخرى للبرابرة.

ونفس الوضع ينطبق على العبرية. في العالم اليهودي-المسيحي كان الاعتقاد القديم أن العبرية كانت لغة الله نفسه، وإنها كانت اللغة الأولى

المستعملة في العالم. «وندیرلي» و «یوجین نیدا» الذین قاما بدراسة مفصلة عن تأثیر المعتقدات المسیحیة في اللغات، عملا هذا التحلیل: إحدى العوامل التي أعاقت التقدم اللغوي، كان الاعتقاد المبكر السائد بین الكتاب المسیحیین، واستمراره لفترة طویلة في عصر النهضة، أن كل اللغات مشتقة من العبریة[١] .

كان مفهوم اللغة «الإلهیة» برمته منتجا من المعتقدات الخرافیة، والتي لیس لها علاقة مع الواقع في شيء. فافتراض أنها هي لغة الآلهة، فإنها تصبح هدفاً للتبجیل في عیون الناس وجعلها في وضع مقدس. وبالتالي لا یمكن أن تبقى هدفاً للدراسة. بعد هذه الرؤیة فإن أي تحلیل نقدي لها، أو تبني طریقة جدیدة لتطویرها، أو أي موقف تقدمي آخر تجاهها، فإنه ینظر إلیه كهرطقة، وأقرب إلى كونه تدنیسا. وتعتبر كل هذه الجهود من قبل الناس نوعاً من الغطرسة، بدلا من أن تكون محاولة صادقة لتطویر اللغة. هذه الحالة للتنمیة المتوقفة كانت نموذجاً لیس فقط في اللغات القدیمة، ولكن في جمیع مجالات الفكر الأخرى، وأنواع لا حصر لها من المعتقدات الخرافیة استأصلت مد التقدم الفكري. وهذه الثورة التي أسست على التوحید، حطمت هذا الحاجز للمرة الأولى في التاریخ. وقد امتد نفوذ هذه الثورة من الجزیرة العربیة إلى جمیع أنحاء العالم. التي أدخلت التاریخ البشري في عصر الواقعیة، تاركة وراءه عصر الخرافة. في اللحظة التي أعلن القرآن أنه لا إله إلا الله، تم إقحام الطریقة العلمیة في حركة التفكیر. فبدأ الناس في التفكیر في الأشیاء بشكل مستقل عن اللاواقعیة والحواجز النفسیة. هذه الطریقة في التفكیر سارت من قوة إلى قوة حتى أدت في النهایة إلى الثورة العلمیة الحالیة.

الممارسة التوحیدیة باعتبار الخصوصیة الإلهیة لله وحده، وإنكار قدسیة كل شيء آخر، وتجرید جمیع المخلوقات والأشیاء الأخرى من

---

(١) اللغویات الأنثربُولُوجیّة، ولیم وندیرلي مجلد ٥ ص ١٠٤ ــ ١٤٤

أي وضع خاص ربما تأخذه. فإعطاء المكانة «الإلهية» للأشياء هي التي عملت حاجزاً لصيرورة البحث والاستكشاف. وحين أُجتثت من مسمى الألوهية، عادت بشكل طبيعي إلى مكانتها الطبيعية حيث تخضع للبحث والدراسة. وهذا هو الإنجاز الفريد في الإسلام، الذي يخوله بأن يُعتبر مبدع العصر الحديث.

الأعداد

أول من اخترع النظام الحالي للأرقام هم الهنود. وكان ذلك في عصر يسود فيه تقليدياً أن كل شيء يعتبز مقدساً، وأن كل ما يخترع هو مشكوك فيه. على هذا، لا يمكن أن تصبح طريقة كتابة الأرقام معروفة على نطاق واسع، واستمرت باقية لفترة طويلة مخبأة بمعزل عن الآخرين في الكتب الخاصة. فلم يكتسب الاختراع الجديد انتشاراً: إذ تشبث الناس بالطريقة القديمة باعتبار أنها مقدسة.

وبعد أن تم تدريس ذلك في بغداد، الامبراطورية التي أنشئت مؤخرا حيث أظهرت تقديراً عظيماً للاختراعات الجديدة، ذهب الرحالة الهندي في عام ٧٧١ لبغداد، والتي كانت آنذاك تحت حكم الخليفة العباسي المنصور. الباحث الهندي قدّم لبغداد أطروحة في علم الفلك، «السند هند»، وبحث في الرياضيات. وبأمر من المنصور ترجمت هذه الكتب إلى اللغة العربية من قبل محمد ابن إبراهيم الفزاري، بين عام ٧٩٦ و ٨٠٦. وذهب الخوارزمي عالم الرياضيات العربي الشهير (٧٨٠-٨٥٠) في هذه الترجمة أدخل رقم الصفر. فوجد أنه بالتسعة أرقام الهندية، ١ـ٩، بالإضافة للصفر، يمكن كتابة أي رقم. وسماها بالأرقام «الهندية»، وأعلن الخوارزمي تبنى واعتماد هذه الأعداد بوجه عام.

كتب فيليب حتي: «كتابة الخوارزمي في النصف الأول من القرن التاسع كانت دليلا على استخدام الأرقام، بما في ذلك الصفر، وتفضيلها

على الحروف. هذه الأرقام سماها الهندية، مشيرا إلى أصلها الهندي. وتُرجم عمله في طريقة الحساب الهندوسية إلى اللاتينية من قبل »إدلارد باث« في القرن الثاني عشر وقد فقدت النسخة الأصلية العربية[١].»

في العصور القديمة كانت الأرقام الرومانية تستخدم بوجه عام في أوروبا. في هذا النظام الروماني، استخدمت خطابات للتعبير عن الأرقام، وهي الطريقة المتبعة من قبل اليونانيين وبعض الدول الأخرى القديمة، والتي استخدمت فيما بعد من قبل الرومان، الذين استخدموا حروفا سبعة – I،V،X،L،C،D،M – استخدموها في توليفات مختلفة. على سبيل المثال الرقم ٨٨ يكتب هكذا LXXXVIII. كانت هذه الطريقة مرهقة وجعلت الحساب عملية صعبة للغاية. ومع ذلك اعتبر الأوروبيون الأرقام الرومانية مقدسة – هبة من الآلهة. ونتيجة لذلك، فإنهم فشلوا في إعادة النظر في تفكيرهم لهذه المسألة. فاعتبار الأرقام غير المقدسة مقدسة كان السبب في فشلهم في تحقيق أي تقدم في العلوم والرياضيات لعدة مئات من السنين. وكانت الثورة الإسلامية، التي لأول مرة بددت هالة القداسة التي تحيط بالرقم وبشرت بعصر التقدم العلمي في أوروبا.

كان «ليوناردو بيزا»[٢]عالم الرياضيات الأكثر تميزا في العصور الوسطى، قد ساعد في إدخال الأرقام الهندية- العربية والتسلسل الرقمي إلى الرياضيات الذي يحمل اسمه.

لا يعرف إلا القليل عن حياة «ليوناردو» سوى بعض الحقائق الواردة في كتاباته الرياضية. ومن المحتمل أنه ولد في بيزا، في إيطاليا. وفي فترة الصبا، تم تعيين والده، غوليلمو تاجر بيزان، قنصلا، أو كبير القضاة على

---

(١) تاريخ العرب لفيليب حتّي (٥٧٣)

(٢) ليوناردو فيبوناتشي (بيزا، ١١٧٠ – ١٢٥٠) عالم رياضيات إيطالي. وقد اشتهر حديثا باسم فيبوناتشي، وكان يعرف فيما مضى باسم ليوناردو بيزانو (نسبة إلى مدينته بيزا)، كما كان يعرف باسم ليوناردو بيقوللو (وتعني Bigollo المسافر). انظر الويكيبيديا (المترجم)

مجتمع تجار بيزان في شمال أفريقيا ميناء بيجارا في الجزائر. وسرعان ما انضم إليه ليوناردو. بهدف الفائدة المستقبلية حيث أرسل الأب ابنه لدراسة الحساب مع سيد عربي. ووصف «ليوناردو» لاحقا متعته في تعلم فن الأرقام التسعة الهندية. وسافر «ليوناردو» أيضا إلى مصر وسوريا واليونان وصقلية وغيرها، حيث درس النظم العددية المختلفة وطرق الحساب ولكنه لم يجد أي طريقة مرضية مثل الأرقام العربية.

عندما ظهرت أول مرة عدادات «ليوناردو بيزا »، لم تكن تعرف الأرقام العربية إلا لعدد قليل من المثقفين الأوروبيين عن طريق ترجمة كتابات الخوارزمي العالم الرياضي والفلكي العربي في القرن التاسع. بدأ «ليوناردو» شرحه للترقيم من خلال مراقبة: «الأعداد العربية التسعة وهي؛١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩. بهذه الأرقام التسعة مع الصفر... أي رقم يمكن كتابته.» الفصول السبعة الأولى تعاملت مع الأرقام حيث توضح مبدأ القيمة المكانية، إذ وضع الرقم يحدد ما إذا كان هو آحاد، عشرات، مئات وهكذا دواليك، ومما يدل على استخدام الأعداد في العمليات الحسابية. تطبيق التقنيات هذه لمثل المشاكل العملية التجارية كهامش الربح، والمقايضة، والصرافة، وتحويل الأوزان، والشراكات، والفائدة.

عدادات «بيزا» التي تم نسخها وتقليدها على نطاق واسع، قد لفتت انتباه الإمبراطور الروماني المقدس فريدريك الثاني، الذي كان راعيا للعلم. إذ دُعي ليوناردو في عام ١٢٢٠ للمثول أمام الإمبراطور في بيزا، وهناك كان أول طرح لسلسلة من المشاكل، ثلاثة منها عرضها ليوناردو في كتبه. الأولى والثانية كانت تنتمي إلى النوع العربي المفضل.

كتب «ويلفريد بلنت»: «لنفترض أن مد الإسلام أُستئصل؟ فلا شيء يمكن أن يؤخر تقدم العلم في الغرب كحماقات الأرقام الرومانية. إن

الأرقام العربية التي وصلت إلى بغداد من الهند في نهاية القرن الثامن، ثم سرعان ما أُدخلت بعد ذلك واعتمدت من قبل أوروبا الغربية ككل، كثير من التقدم العلمي الذي صاحب عصر النهضة في إيطاليا ربما كان يمكن تحقيقه مسبقاً بعدة قرون.[1]»

التفسير

بالنسبة لأولئك الذين يرغبون فهم كيف نشأ الصفر في الهند، اعتماد كتابلالأطفال، فقد نشرت نيودلهي كتيب بـ٢٢ صفحة باللغة الإنجليزية بعنوان «قصة الصفر»، والذي كُتب للقارئ العادي وكذلك للأطفال من قبل ديليب سالاوي.

قبل هذا الاختراع لم تكن هناك طريقة سهلة لتمثيل الأرقام الكبيرة. حيث أتخذ أسلوبا واحدا، بتخصيص بعض الكلمات لأعداد معينة مثل ساهاسارا لـ ١،٠٠٠، وايوتا لـ ١٠،٠٠٠، ولكشا عن ١٠٠،٠٠٠، وكوتي للـ١،٠٠٠،٠٠٠. فاختراع الصفر يعتبر ثورة في علم الرياضيات، إذ أصبح من السهل للغاية الدلالة على الأرقام الكبيرة.

براهما جوبتا (٥٩٨-٦٦٠)، الذي ولد في مولتان، كان الشخص الأول البارز لعمل طريقة لاستخدام الصفر. ومع ذلك كانت طريقته فيها بعض أوجه القصور. ثم تلاه في وقت لاحق بهاسكار (١١١٤-١١٨٥)، الذي ولد في بيجابور، ألف كتابا في اللغة السنسكريتية سماه «ليلى واتي» ، وصف فيه مفهوم الصفر بطريقة أسهل وأكثر فهماً. وقام مورثي في مراجعته لهذا الكتاب، بالكتابة قائلاً: «يعزز شعورنا بالفخر الوطني أن نلحظ أن الصفر مبتكر في الهند»[2].

مؤلف كاتب «ليلى واتي» يخبرنا أن «الأرقام الهندية دخلت لأول مرة اسبانيا، ثم إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا... وتم قبول الأعداد الهندية

---

(١) التايم (اللندنية) ابريل ٢ ، ١٩٧٦

(٢) التايم (الهندية) يونيو ٣٠، ١٩٨٩

تماما... وباعتمادها كانت نقطة تحول في تاريخ الرياضيات والعلم.[١]»

صحيح أن مفهوم الصفر نشأ في الهند، ولكن ليس صحيحا أنه وصل الى العالم الغربي مباشرة من الهند: لقد كان من خلال العرب الذين أوصلوه إلى الغرب. لهذا السبب كان الغرب يسمي هذه الأرقام العربية بدلا من الهندية. تقول الموسوعة البريطانية: الأرقام العربية، ٠، ١،٢،٣،٤،٥،٦،٧،٨،٩ ربما قد نشأت في الهند، ولكنها أدخلت إلى العالم الغربي من الجزيرة العربية[٢].

وعلاوة على ذلك، تخبرنا الموسوعة أن هذه الأرقام أصبحت معروفة للمثقفين الغربين في القرن التاسع من خلال كتابات الخوارزمي، عالم الرياضيات العربي، حيث وصل شرحه للأرقام باللغة العربية إلى أوروبا من خلال الترجمات اللاتينية[٣].

كتب برتراند راسل:« محمد بن موسى الخوارزمي، وهو مترجم كتب الرياضيات والفلك من اللغة السنسكريتية، نشر الكتاب الذي ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر، تحت عنوان «الفن الهندي في الحساب للخوارزمي». ومن هذا الكتاب تعلم الغرب لأول مرة ما نسميه الأرقام «العربية»، والتي يجب أن تُسمى «الهندية». وكتب نفس المؤلف كتابا عن الجبر، الذي كان يستخدم في الغرب ككتاب مدرسي حتى القرن السادس عشر[٤]».

وعلى الرغم من أن مفهوم الصفر نشأ في الهند، إلا إنه لعدة مئات من السنين لم يتلق أي اعتراف في الهند نفسها. جاء الاعتراف به فقط عندما

---

(١) قصة الصفر، ديليب سالاوي

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١ ص ٤٦٩

(٣) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٠ ص ٨١٧

(٤) تاريخ المجتمع الغربي، برتراند راسل (٤١٦)

اعتمده العرب بوجه عام ثم بعد ذلك الغرب. تقول الموسوعة البريطانية: «إن اختراع رقم الصقر، ربما كان من قبل الهندوس، وُصف بأنه واحد من أعظم الأحداث في تاريخ الرياضيات. يعطي الأدب الهندوسي دليلا على أن الصفر قد كان معروفا قبل ميلاد المسيح، ولكن لم يتم العثور على نقش مثل هذا الرمز قبل القرن التاسع.[1]»

صحيح أن مفهوم الصفر تشكل أولا في ذهن الهندي. ولكن في تلك الفترة التاريخية، سيطرت خرافة الشرك بالكامل على الهند. حتى سجي كل شيء في طلاسم وكانت تمقت الاختراعات. لهذا السبب لم يحظى مفهوم الصفر باعتراف عام في الهند القديمة. تم تقليله لمجرد إنه اكتشاف فردي، ومن ثم فشل في نيل موافقة عامة. أُهملت بذور الهند في موطنها وحين وجدت تربة خصبة في بغداد المسلمة، نمت لتكون شجرة يانعة، وعن طريق مسلمي اسبانيا، انتشرت في جميع أنحاء أوروبا. لذا بدون وجود الإسلام الذي وضع أولاً حداً لمفاهيم الشرك والخرافة، فإن مفهوم الصفر، كالعديد من الأفكار المبتكرة الأخرى، لم يكن من الممكن الترحيب به عالميا.

الزراعة

كان النهر واحداً من تلك الظواهر الطبيعة التي أُعتقد أنه يمتلك صفات إلهية. يعتقد الناس أنه يسكن فيه روح غامضة، والتي جعلت الماء يتحرك، وجعلته مفيداً أو ضاراً[2].

نهر اسكمندر في اليونان القديمة كان من الواضح أنه مشخص، وفقا لإيسخينس، الخطيب اليوناني في القرن الرابع قبل الميلاد. حيث يغتسلن بنات في النهر قبل الزواج ويقلن: «اسكمندر، تقبل عذريتي» فكانت

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١ ص ١١٧٥

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٧ ص ١٢٩

الطقوس السحرية كثيرة التي تجعل المياه بديلا عن السائل المنوي أو خصوبة الرجال[1].

لأنه أُعتقد في العصور القديمة بقدسية الأنهار (حتى يومنا هذا، لا يزال بعضها يحظى بالتقديس) فبدأ الناس عبادتها وتقديم القربان لها. كان مفهوم القداسة قد أعاق الإنسان من غزو الطبيعة. رأى الناس الأنهار في شكل آلهة وليس في شكل الأشياء المادية كي يتم استغلالها من قبل الطرق الشائعة. لهذا السبب بقي استخدام مياه النهر في الزراعة محدودا في العصور القديمة. والمدهش أن تاريخ الري كان بداياته نسبياً في العصر الحديث.

مع بداية الثورة الإسلامية المؤسسة على التوحيد، كشف للإنسان أن النهر كان مخلوقاً وليس خالقاً، كان عبداً وليس رباً. عندئذ فقط كان من الممكن للإنسان أن يقدم أفكارا لإيجاد السبل والوسائل في استغلال الأنهار على نطاق واسع. وهذا هو السبب في أننا نأتي لحقيقة في كتب التاريخ أنه لا يوجد سابقة لدى أي أمة كان لديها نظام الري متطورا على نطاق واسع كالذي وضعه المسلمون الإسبان. طور المسلمون الإسبان الزراعة إلى حد أنه أصبح علما منتظما. درسوا الأشجار وأجريت بحوثا على خصائص التربة. وعلى مساحات شاسعة من الأراضي، التي إلى اليوم قاحلة، تم تحويلها إلى بساتين وحقول خضراء. لقد كانت الثورة الخضراء الحقيقية.

كتب فيليب حتي: حفروا القنوات وزرعوا العنب وجُلب بينها النباتات والفواكه المتنوعة، والأرز، والمشمش، والخوخ، والرمان، والبرتقال، وقصب السكر، والقطن، والزعفران. سهول الجنوبي الشرقي في شبه الجزيرة تميز بالمناخ والتربة، فقد طورت مراكز مهمة من

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ١٢ ص ٨٨٢

الأنشطة في الريف والحضر. فزُرع القمح وحبوب أخرى، وكذلك الزيتون والفواكه المتنوعة من قبل الفلاحين الذين يعملون في التربة بالأسهم مع أصحابها.

كانت التنمية الزراعية واحدة من أمجاد مسلمي اسبانيا وواحدة من هدايا العرب الدائمة في الأرض، لقد حفظت الحدائق الاسبانية حتى يومنا هذا البصمة «المغاربية». واحدة من أكثر الحدائق شهرة هو العريف (مأخوذة من جنات الريف، ناظر الجنة)، وهو نصب تذكاري لبني نصر في أواخر القرن الثالث عشر كانت فيلا واحدة من المباني النائية من قصر الحمراء. وكانت هذه الحديقة مضرب مثل لظلها الرحب ولتساقط ميائها ولنسيمها الرخيم، والمدرجات كانت في شكل مسرح مدرج مروي بمياه جارية تضم العديد من الشلالات، يضيعون بين الزهور والشجيرات والأشجار يمثلها اليوم عدد قليل من أشجار السرو العملاقة ونباتات الآس[١].

يقول تشارلز سينوبوز، الكاتب الفرنسي، أن العرب الإسبان تبنوا طريقة الري بالقنوات. وحفروا أيضا آبارا كبيرة. وقد اكتشفوا مصادرا جديدة للمياه حيث أُعطوا مكافآت ضخمة. وحفروا في إسبانيا القنوات الواسعة، ثم قسموها لهم، ونتيجة لذلك تحول السهل القاحل في فالنسيا إلى مسالك واسعة من الخضرة المورقة. وأسسوا قسم دائم من الري الذي وفر جميع أنواع المعلومات المتعلقة بالموضوع.

يكتب برتراند راسل واصفا مسلمي اسبانيا: واحد من بين أفضل سمات الاقتصاد العربي كانت الزراعة، وخصوصاً الاستخدام الماهر للري، الذي تعلموه من الحياة حيث المياه شحيحة. وحتى يومنا هذا فإن ارباح الزراعة الاسبانية من قبل شبكات الري العربية[٢].

---

(١) تاريخ العرب لفيليب حتّي (٥٢٨)

(٢) تاريخ الفلسفة الغربية، لبرتراند راسل (٤١٦)

إنها حقيقة أن المسلمين الذين ذهبوا إلى إسبانيا أحدثوا ثورة خضراء فعلية. وهناك أسسوا أنظمة للري للحقول والبساتين بما لم يسبق له مثيل في التاريخ. ومع ذلك، والغريب إذ يعزو برتراند راسل هذا إلى أنهم عاشوا في الماضي في مناطق صحراوية حيث المياه شحيحة. هذا التفسير لا معنى له. والحقيقية، أن السبب الكامن وراء هذا العمل الفذ هو الثورة التوحيدية، التي أصلحت عقول العرب. وقبل ذلك، كان الناس ينظرون إلى الأنهار والينابيع والبحر على شكل آلهة. واعتقدوا أنها موضعا للإجلال بدلا من استغلالها. وحين غيرت العرب رؤيتها رأت أن هذه الظواهر الطبيعة هي شكل من مخلوقات الله. رأوها بعين الإخضاع لاستغلالها. كانت هذه الثورة العقلية، التي مكنت العرب من أداء مآثر تاريخية في عالم الري والزراعة.

كيف تمكنوا من معرفة طرق الري في الصحراء حيث المياه شحيحة؟ نجهل المصدر الحقيقي لهذه المهارات العربية، وربط برتراند راسل ذلك بطريقة ليس له علاقة قوية، ربطها بحياتهم في الصحراء، والتي هي بلا مياه، بدلا من ربطها بثورتهم العقلية التي جاءت بفضل التوحيد. وقد تم تطوير علم الري ليس بسبب حياة الصحراء ولكن بسبب تفكيرهم التوحيدي.

علم التأريخ

كانت نقطة البداية في فلسفة أرنولد توينبي للتاريخ ادعاءه أن الوحدة المناسبة للدراسة التاريخية يجب أن تكون الحضارة، بدلا من الوحدة التقليدية، الدولة القومية[١].

ومع ذلك، كل من هذه المفاهيم تتوقف على نفس المبدأ: يجب أن لا يركز التاريخ فقط على الإجراءات والصلاحيات الملكية على مر

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٥ ص ٧٦

العصور، ولكن ينبغي أن تكون دراسة على مجموع جميع الأنشطة لجميع فئات البشر، أيا كان هذا الإطار، سياسي أو حضاري، حيث يتفاعلون في مضمونه. في تاريخ البشرية الطويل، تطور هذا النهج فقط خلال القرون القليلة الماضية، فهو جديد نسبيا. التاريخ، أو علم التاريخ، يعادل الآن بـ «قصة الإنسان» بدلا من «قصة الملك» عصر ما قبل الحداثة. وكان «قصة الملك» تتكون من أوصاف مفصلة للملوك، إلى جانب تفاصيل وفيرة عن القصور التي كانت تحتلها والجنرالات الذين يأمرونهم، لم يذكروا الإنسان العادي، حتى لو اتسمت إنجازاته بالعظمة. الإنسان الوحيد الذي يعتبر جدير بالذكر هو الذي تم تزيين رأسه بالتتويج. وهكذا بلغ التاريخ القديم إلى التقليل من الإنسانية بوجه عام.

بينما اعتبرت الأحداث الحقيقية المتعلقة بغير الملوك غير مستحقة لأي ذكر، وحتى الحكايات الأسطورية والأخبار التلفيقية عن الملوك يتم حفظها كتابة كما لو كانت حقائق كبيرة. خذ على سبيل المثال، بناء الإسكندرية، المدينة الساحلية الشهيرة التي تحمل اسم مؤسسها الاسكندر الاكبر. ترتبط العديد من القصص الغريبة مع تأسيس هذه المدينة. واحد منها يتعلق بجن البحر الذي قيل إنه قد وضع العقبات في طريق البناء حينما بدأ العمل أولا. حيث تذهب القصة، أن ألكسندر قرر أن يرى بنفسه ما كانت الجن عليه. أعطى أوامر بعمل مربع كبير من الخشب والزجاج، وعندما أصبحت جاهزة، نزل بنفسه فيها إلى قاع البحر. وهناك رسم صور من الجن ثم عاد إلى الأرض، ثم سُبكت التماثيل المعدنية لتبدو تماما مثل التنين. وهذه التماثيل وضعت تحت أساسات الإسكندرية. عندما جاءت جن البحر هناك، ورأوا أن الجن مثلهم قد قتلوا ودفنوا تحت الأساسيات، خائفوا وولوا هاربين. حقيقة أن هذه القصة كسبت شيوعا أظهرت الحالة الساذجة التي عاش فيها العالم كله قبل ظهور الإسلام.

في السجلات التاريخية القديمة، كان الأكثر انتباه هو اغفال حياة وتأثير الأنبياء العظماء في العالم. الناس اليوم سيستغربون كثيرا لو أن تاريخ الكفاح من أجل الحرية في الهند لم يضع أي دور لغاندي، أو تاريخ الاتحاد السوفييتي سابقا أغفل لينين تماما. ولكن الأشد غرابة من ذلك أن التاريخ الآن مجرد عن ذكر تلك النفوس التقية، الذين كانوا رسل الله. والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة من الإغفال هو خاتم الأنبياء، النبي محمد، صلي الله عليه وسلم. والسبب في إدراجه البارز في السجلات التاريخية أنه هو الذي وضع حركة الثورة الاسلامية، وكان قادرا على التغيير الدقيق لتلك العوامل ـ غير الديمقراطية، والشركية، وخرافيات طبيعة المجتمع ـ التي كانت في الماضي مسؤولة عن مثل هذه الثغرات المذهلة في كتابة التاريخ البشري. بدون شك في أن الثورة الإسلامية هي التي جعلت من الممكن لعلم التأريخ أن يمضي قدما على المسار العلمي. في التاريخ البشري المعروف، ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) وهو المؤرخ الوحيد الذي غير نمط علم التأريخ. وكان هو الذي أثار علم التأريخ من مجرد مستوى قصة الملك إلى مستوى قصة الإنسان الحقيقية. تم تغيير «علم الملك» إلى علم الاجتماع. والحقيقة هي أن العلم الذي يعرف اليوم باسم علم الاجتماع هو هدية من ابن خلدون. وهو بنفسه ادعى أنه مؤسس علم الاجتماع، وليس هناك من سبب للطعن في دعواه.

وقد اعترف روبرت فلينت بعظمة ابن خلدون وفي سياق مماثل قال: «كمنظّر للتاريخ فإنه ليس لديه مماثل في أي عصر أو قطر حتى ظهر فيكو، فأكثر من ثلاث مئة سنة. كان أفلاطون وأرسطو وأوغسطين لا قرناء لهم»[1].

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٩ ص ١٤٨

لقد كان حقا أن ابن خلدون هو الذي قدم لأوروبا علم التاريخ الحديث. وقد منحه الإسلام هذه الهدية. أنتجت الثورة الإسلامية ابن خلدون، وابن خلدون أنتج علم التاريخ الحديث.

كتب الأستاذ فيليب حتّي: ترتكز شهرة ابن خلدون في المقدمة. ففيها قدم لأول مرة نظرية التطور التاريخي الذي تتأخذ الإلمام بالحقائق المادية للمناخ والجغرافيا وكذلك القوى الأخلاقية والروحية في العمل. كما سعى لصياغة قوانين تقدم واضمحلال الأمم، ويمكن اعتبار ابن خلدون مكتشف ـــ كما يدعي هو ذلك ـــ المدى الحقيقي والطبيعي للتاريخ، أو على الأقل المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع. لا يوجد كاتب عربي، بل في الواقع ولا أوروبي، اتخذ رؤية تاريخية شاملة وفلسفية. بإجماع الرأي النقدي أن ابن خلدون كان أعظم فيلسوف تاريخي انتجه الإسلام، واحد من العظماء في كل الأزمان.

في الكتاب الأول من المقدمة، يرسم ابن خلدون علم الاجتماع العام؛ وفي الكتب الثاني والثالث علم الاجتماع السياسي. وفي الكتاب الرابع علم الاجتماع للحياة الحضرية؛ وفي الكتاب الخامس علم الاجتماع الاقتصادي؛ وفي الكتاب السادس علم الاجتماع المعرفي. رصع العمل بملحوظات رائعة في علم التأريخ، والاقتصاد، والسياسة، والتعليم. وربطهم جميعـًا معا عن طريق مفهوم مركزي للعصبية، أو التماسك الاجتماعي. وهكذا وضع الأساس لعلم التاريخ الذي لا يستند فقط على وصف الملوك، ولكن بمعنى اوسع، على أساس الاقتصاد، والسياسة، والتعليم، والدين، والأخلاق، والثقافة للأمة بأسرها[1].

وقد اعترف المؤرخون عموما أن علم التاريخ ظل متخلفـًا قبل ظهور ابن خلدون، وكان هو أول شخص طور فلسفة التاريخ. تذهب

---

(١) تاريخ العرب لفيليب حتّي (٥٦٨)

الموسوعة البريطانية بعيدا إلى حد القول أنه «وضع واحدة من أهم فلسفات التاريخ في العالم.[1]»

والسؤال المطروح هو كيف أصبح من الممكن لابن خلدون اكتشاف شيء ما، والتي ظلت غير مكتشفة لعدة قرون. الجواب هو أن مؤرخين آخرين ولدوا قبل الثورة الإسلامية، في حين ولد ابن خلدون بعد ذلك. والإسلام أحدث ثورة على أساس التوحيد قضت على الفرق بين الملك وعامة الشعب. جميع البشر، من نسل آدم وحواء، حيث يعتقدون أنهم على قدم المساواة. إنها كانت بوجه فريد ثورة المساواة العظيمة التي مهدت الطريق لابن خلدون ــ الذي هو نفسه انتاج هذه الثورة ــ لوضع الأساس للتاريخ الحديث الذي لم يُعتقد مكانة مركزية «للشخصيات الملكية» ولكن عن طريق الإنسانية نفسها.

كانت إحدى المعوقات التي أعاقت تطور علم أو فن التاريخ هو الاعتقاد الشركي. فقد عمت المعتقدات الشركية قبل الإسلام والتي كانت تؤيد إلهية الملوك. «كثيرا ما وقف الملك كوسيط بين شعبه وإلههم، أو ممثلا للإله.[2]». تظاهر بعض الملوك بتجسيد الإله، أو حتى الآلهة أنفسهم، وبدون شعور للحاجة إلى عقلنة ادعاءهم، فقد فعلوا ذلك من أجل «الحق الإلهي للملوك» ولا ينبغي لأحد أبدا أن يشكك في سيادتهم المطلقة. وحتى عندما الملوك لا يزعمون مثل هذه الادعاءات، فإنه يُعتقد بألوهتهم، لأن الألوهية كانت متلازمة كونياً مع الملوك. وكذلك عندما يجي أحد عامة الناس بأي شيء خارجا عن المألوف فإنه ينظر إليه على أنه خارق، وإذا كان شخصية مرموقة، جعلوه إلها أو مظهر من مظاهر الإله. وبطبيعة الحال، لم تثبط هذه العقلية من قبل الملوك.

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٩ ص ١٤٧

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٩ ص ٨١٦

حكام الأزمنة القدية شجعوا مثل هذه الأفكار الخرافية لدرجة أن الناس استمروا في اعتبارهم كائنات متفوقة. في التاريخ المعروف، كان النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، أول حاكم دحض هذه المعتقدات الخرافية، وأظهر أنه لا أساس لها. وبهذه الطريقة، قاد البشرية على طريق التنوير، وقضى على الفوارق بين الناس على المستوى الفكري. اعتقد أنه لا أساس لها من الصحة حيث أن جميع هذه الافتراضات والخرافات هي التي كانت مسؤولة عن إقامة وإدامة عقلية «العبد ــ السيد».

قبيل نهاية حياة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ماريا القطبية أنجبت له ولدا جميلا ومرحاً في المدينة المنورة. سماه النبي عليه الصلاة والسلام إبراهيم. كان ابراهيم عمره سنة ونصف فقط حينما مات في السنة العاشرة من الهجرة (يناير ٦٣٢ م). وحدث أن وفاة إبراهيم تزامنت مع كسوف الشمس. وكانت إحدى الخرافات السائدة في العصور القديمة أن الكسوف والخسوف تحدث بسبب وفاة ملك أو غيره من الشخصيات المهمة. وظنوا أن السماوات تنعى وفاة شخص مبجل. في ذلك الوقت كان رسول الله، صلي الله عليه وسلم، ملكا للعرب. لهذا السبب، بعض من المدنيين بدأوا ينسبون الكسوف إلى وفاة ابن النبي عليه الصلاة والسلام. حينما سمع النبي صلى الله عليه وسلم هذا دحضه. وهناك عدة روايات لهذه الحادثة في كتب الحديث. واحدة من تلك الروايات على النحو التالي: عن أبي بكرة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكسفت الشمس فقام النبي صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى دخل المسجد، فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم[١]».

(١) سنن أبي داود، رقم ١١٧٧. قال الألباني: صحيح

وعندما أصبحت كل الجزيرة العربية تحت هيمنة الإسلام، أدى النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع في أيامه الأخيرة، جنبا إلى جنب مع ١٢٥،٠٠٠ من الصحابة. خلال هذا الحج ألقى خطبة تاريخية له في سهل عرفات تعرف باسم خطبة حجة الوداع.

وكانت هذه الخطبة إعلانا لحقوق الإنسان: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله اتقاكم، فليس لعربي على عجمي فضل، ولا لعجمي على عربي فضل، ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى[1]» ومما قال النبي صلى الله عليه وسلم: « ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع[2]» لأول مرة في التاريخ القديم، تم القضاء على كل أنواع عدم المساواة والتمييز بشكل كامل تقريبا. عندئذ فقط جاءت حضارة جديدة إلى حيز الوجود حيث كان جميع البشر متساويين. ويشير «المهاتما غاندي» عن الحديث عن خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم أبي بكر وعمر قائلاً: « مع أنهم كانوا سادة لإمبراطورية واسعة، إلا إنهم عاشوا حياة فقراء معدمين.»

وكانت هذه الثورة قوية لدرجة أنه حتى في فترة لاحقة، عندما ظهر الفساد في مؤسسات الحكومات، وحل محل الخلفاء «الأباطرة»، كان ضغط الحضارة الإسلامية كبيرا لدرجة أنه ولا أي أحد من هؤلاء «الأباطرة» يمكن أن يعيش نمط الملوك القدماء. في التاريخ الإسلامي هناك العديد من الأمثلة لهذه الحالات. المثال التالي الذي وقع في عهد السلطان عبد الرحمن الثاني (١٧٦-٢٥٨)، وهو حاكم قوي من مسلمي اسبانيا، هو مثال واضح. كان هذا السلطان بنى لنفسه قصرا سماه الزهراء، إلى الشرق من قرطبة، وكان من الضخامة لدرجة أن كلمة قصر

(١) صححه الألباني في « السلسلة الصحيحة » ٦/ ٤٤٩

(٢) صحيح مسلم رقم «٢١٣٧»

لم تكن كافية لوصفه. جاء هذه المسكن البديع ليعرف باسم مدينة الزهراء (المدينة الرائعة). ولكن مع كونها قوية جدا، وعاشوا فيها في بهاء؛ إلا إن السلطان لم يعتبر نفسه أنه فوق القانون.

حدث ذات مرة أنه جامع في نهار رمضان دون وجود أي عذر يبيح له ذلك. جمع علماء الشريعة في قرطبة، وأخبرهم بعثرته. وطلب منهم الحكم الشرعي، الذي من شأنه أن يمكنه من التكفير عن خطأه.

كتب المقري أن واحدا من علماء الشريعة وهو الإمام يحيى بن يحيى، قد استفتاه الملك في الجماع في نهار رمضان، فقال: تصوم شهرين متتابعين. وكان إمام القضاة في زمانه، ولما أفتى بهذه الفتوى عجب العلماء الذين معه وسكتوا هيبة له، وظنوا أن له مساغاً من الاجتهاد، فلما خرج راجعوه وقالوا: لماذا أصريت على الصيام ولم تخيره بين العتق والصيام والإطعام للتكفير؟ فقال: إننا لو قلنا له: أعتق رقبة لجامع وخف عليه الأمر، وهان عليه كل يوم أن يجامع ويعتق رقبة، وأما إذا أمرته بالصيام فإنه يحفظ حدود الله ومحارمه أن ينتهكها، فأمرته بالصوم لعظيم مشقته عليه؛ ولأنه أمكن لزجره من الوقوع في هذا المحظور[1]. ومما ذكر التاريخ الأندلسي أن السلطان عبد الرحمن الثاني قبل فتوى الإمام يحيى، وصام شهرين متتابعين، ولم يظهر أي ردت فعل على هذه الفتوى، ولم يطرد الإمام من مجلسه[2].

هذا يمكن تفسيره من حيث تأثير الثورة الإسلامية التي وضعت حدا للاختلاف بين الرعية والحاكم. وقد خلق مثل هذا الجو من المساواة

---

(١) قد أنكر العلماء على يحي بن يحي بن كثير الليثي صاحب الإمام مالك، فتواه لأحد الخلفاء في الأندلس وقد جامع في نهار رمضان بأنه يجب عليه صوم شهرين متتابعين ابتداء، بحجة أن الخليفة قادر على العتق والإطعام فلا ينزجر بغير الصوم. فهذا القول لا يقبل قطعياً فإنه استحسان ووضع للشرع بالرأي. (المترجم)

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن المقري التلمساني (٢/ ١١)

بين البشر، أنه لا يمكن لأحد أن يعتبر نفسه متعاليـاً على الآخرين. ولا حتى الملك يجرؤ أن يضع نفسه في حالة استثنائية عن عامة الناس أو أن ينتهك القانون.

قبل الثورة الإسلامية كانت هناك حقيقة مقبولة أن الملك كان أسمى من الإنسان العادي. على سبيل المثال، الإمبراطور البيزنطي هرقل، كان معاصرا للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ومع إنه كان مسيحيـاً «فقد تزوج ابنة أخته، مارتينا، وبالتالي فهو أهان الحكم الديني للعديد من رعاياه، الذين ينظرون لزواجه الثاني على أنه سفاح قربى.[1]»

كان معروفـاً للشعب أن هذا الزواج غير شرعي، ولكن لم يكن هناك غضبا شعبيا عارما. وذلك بسبب أن هرقل كان ملكا، لذا فهو فوق أي حكم أو أي معيار إنساني؛ وكملك فإن له الحق أن يفعل ما يشاء.

في العصور القديمة كان هذا المفهوم غير العادي في تعظيم الملوك قد غُرس بالقوة، وكمسألة متعلقة باعتقاد الخرافات فالمواطنون العاديون بدأوا يعتبرون ملوكهم مخلوقات متعالية بالفطرة. وحين يحترم الملك الشعائر والطقوس الخاصة فهو من أجل تعزيز هذه الطريقة من التفكير. كان الملوك فيما يتعلق بإمبراطوراتهم، حققوا إجلالا مرحليا متوازيـاً مع حق الله تعالى في اتساع الكون له. كان من الطبيعي أن علم التأريخ ينبغي أن يأتي تحت تأثير هذا المفهوم من الناحية العملية «الحق الإلهي للملوك»، أصبح تأريخـاً لحياة الأسر المالكة مع إشارة ضئيلة إلى الإنسان العادي.

مع بداية الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها، تم إبعاد أجسام الطبيعة كالشمس والقمر من ركيزتها الإلهية. بطريقة مقاربة، تم إزاحة الملوك من مقعد الإجلال غير العادي. وأصبح الآن ينظر للملك على أنه مجرد إنسان مثل أي شخص آخر.

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٨ ص ٧٨٢

تأثير الثورة الإسلامية وصلت في نهاية المطاف لآسيا وأفريقيا والعديد من الدول الأوروبية، حيث مهدت الطريق لمناخ جديد على نطاق عالمي، بمنهجية جديدة في التفكير، فالعقلية القديمة بمركزية الملك أزيحت إلى أخلاقيات مركزية الإنسان. وأعطي التعبير البارز بالمنهج الجديد في علم التأريخ في كتابات عبد الرحمن ابن خلدون حيث في تصدير كتابه «كتاب العبر»، طرح نظريته في الكيفية التي ينبغي أن يكتب بها التاريخ. ويعتبر من المهم جدا أن يتم نشر هذا التصدير أو المقدمة عدة مرات بعدة لغات.

ابرز مؤرخي العهد المملوكي كان المقريزي، كان تلميذا لابن خلدون. ومن خلاله في القرن الخامس عشر أدخل نظريات ابن خلدون في مصر. وفي وقت لاحق، جاءت دول إسلامية أخرى تحت نفوذ المسلمين. وما بين ١٨٦٠ و ١٨٧٠ تم نشر «المقدمة» بالكامل باللغة الفرنسية، وبالتالي نظرياته التاريخية دخلت أوروبا. أخذت هذه الأفكار تتجذر في التربة الأوروبية، واكتسبت شعبية كبيرة. فيكو ومؤرخون غربيون آخرون طوروا هذا الفن، حتى صعدوا به أخيرا إلى النموذج الحديث في علم التأريخ.

الحرية والمساواة والإخاء

كان دائماً من أعز أحلام الفلاسفة والمفكرين المساواة الأخوية. وكان نبي الإسلام، صلى الله عليه وسلم، أول شخص يحدث ثورة للمرة الأولى في التاريخ مبناها على المساواة في الممارسة العملية. وقد اعترف علماء متميزون بوجه عام بهذا. على سبيل المثال، كتب سوامي فيفيكاناند في رسالته رقم ١٧٥ أنه في خبرته «لو أن هناك دين اقترب نحو المساواة بوجه ملموس، فإنه هو الإسلام والإسلام وحده فقط»[(١)].

(١) رسائل سوامي فيفيكاناند

على مر التاريخ، كانت المساواة عملياً هي الاستثناء من القاعدة، وذلك بسبب القبول العام للشرك، الذي برهن أنه حجر عثرة لكثير من أنواع التقدم المختلفة على مر العصور. في حين أن هيمنة الشرك أبقت عدم المساواة بين الناس، وهيمنة التوحيد أسست المساواة بين الناس.

والحقيقة أن الإنسان يبرز اختلافات كثيرة فالحالة المزاجية وبنية الجسم لديه سواء كانت موروثة أو مكتسبة. وهناك الأسود والأبيض، والغني والفقير، وواحد حاكم والآخر محكوم. هذه الاختلافات موجودة، ووفقا للقرآن هي مسألة تحديد هوية (٤٩:١٣)[1] من أجل تمييز شخص عن آخر وليس لغرض التمييز العنصري. فيمكن للمرء أن يضع هذه الاختلافات مسألة تصنيف، بحيث يمكن بها تنظيم العالم بشكل صحيح. وهذا لا يعني أن هناك وضع أعلى ووضع أدنى. وجود هذه الاختلافات فقط لتسهيل هيكلة أنشطة العالم الذي يظهر التنوع الكبير جدا.

حين شكل الإنسان مفاهيم غير واقعية بشأن الظواهر الفيزيائية تحت تأثير الخرافات التي ولدت من المعتقدات الشركية، وبالمثل مفاهيم غير واقعية عن الإنسان اكتسبت انتشارا عالميا. جاءت هذه المفاهيم على مر القرون لتشكل جزءا من تقاليد شعوب العالم. فمثلاً، أدى مفهوم عدم المساواة إلى تشكيل النظام الطبقي في بعض المجتمعات. وكان يعتقد أن بعض الناس ولدوا من رأس الإله، في حين آخرون ولدوا من قدميه. وعلى هذا النحو فقد تم تقسيم المجتمع إلى طبقات عالية ومتدنية. وبطريقة مماثلة، تم تشكيل مفهوم الملوك بأنهم سلالة إلهية، وإن على عامة الناس فقط خدمتهم. في العديد من المجتمعات تشكل مفهوم الطبقات العالية والمتدنية من الولادة، أو عن طريق العرق.

---

(١) يشير لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات :١٣].

استنادا إلى مفهوم عدم المساواة أصبحت الممارسات التمييزية سائدة تحت تأثير الشرك، ومع مُضي الزمن أصبحت سمة دائمة من سمات التاريخ البشري. حتى وصل الأمر إلى أن يعتقد أن هذا طبيعي كالليل مخصوصاً بالظلام والنهار بالإشراق، فالتقسيم البشري على الأسس المذكورة بالأعلى لا يمكن أبدا أن يكون له نهاية. إنه شيء ما وجِد وسيظل موجوداً للأبد إنها إرادة الآلهة.

كان يجب التغلب على هيمنة الشرك والخرافة من أجل الدخول في عصر المساواة. ولكن حتى مع ظهور الآلاف من الأنبياء، لا يمكن إحضار المساواة إلى حيز الوجود. أصبح النبي محمد، صلي الله عليه وسلم، آخر الأنبياء، فمن الضروري على الاطلاق اجتثاث سيطرة المعتقدات الخرافية مرة واحدة وإلى الأبد. من الناحية النظرية، كل واحد من الأنبياء قام بدوره في هدم مثل هذه المعتقدات، ولكن من الناحية العملية، حافظت المصالح الشخصية للناس على بقاء هذه الخرافات، لذلك في الواقع فإنه لم يتم القضاء على الخرافة. أرسل الله تأييداً خاصاً للنبي محمد، صلي الله عليه وسلم، فضلاً عن أصحابه، حيث أحدثت الثورة الفكرية التي اجتثت عالميا مثل هذه العقائد. والتي كان في تلك المرحلة مفهوم عدم المساواة متجذر إلى الأبد.

في خطبة النبي، صلى الله عليه وسلم، في حجة الوداع، كان هذا القول في موضوع إنهاء المعتقدات الشركية، قال صلى الله عليه وسلم: « لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أبيض على أسود، ولا أسود على أبيض، إلا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب»[1].

وكان هذا الإعلان الذي قاله النبي، صلى الله عليه وسلم، ليس مجرد خطبة غير مطبقة من قبل السلطة. أو كان مرسوما رسميا صادرا عن

---

(١) قال الألباني في شرح العقيدة الطحاوية: صحيح (١/ ٤٠٦)

الحكومة في ذلك الوقت. لم يكن مجرد أمر شفهي حول «ما ينبغي القيام به» ولكن كانت معلومات فعلية عن شؤون دولة قائمة بالفعل. كان من المفترض صدوره ليس فقط لتنبيه الجاهل ولكن لتعزيز حالة اجتماعية. وكل الجدران الاصطناعية المقسمة للإنسانية انهارت. فكان عصرا جديدا بشّر بإلغاء الطبقية بين الناس وعدم تمييزهم. لقد كان عصرا يكون الاعتبار فيه داخل المجتمع من خلال الشخصية والإنجاز، وليس عن طريق الولادة أو الانتماء إلى عرق معين.

الحدث

في الأزمنة الماضية عندما الإنسان يُميز في المجتمع، لم يكن قادراً أن يرفع صوته، وكان يعتقد أن ذلك كان نتيجة لمصيره. وهذا يعني، أنه يعتقد نفسه مُقدّر من الولادة أن يكون لديه هذا النوع من المعاملة التي يلاقيها. ولكن خلال حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقعت حادثة أظهرت كيف أن الزمن تغير. كانت مصر قد فُتحت في تلك الفترة من قبل المسلمين، وكان عمرو بن العاص قد عُين واليًا عليها. وفي يوما ما جاء شاب مصري قبطي إلى الخليفة يشكو نجل حاكم المسلمين إذ تسابقا، فسبق القبطي ابن الحاكم، فصفعه هذا وقال: «أتسبقني وأنا ابن الأكرمين؟» الآن، الصبي القبطي يعلم المساواة التي أحدثتها الثورة الإسلامية، فرحل إلى الخليفة ليبحث عن العدالة.

أرسل الخليفة على الفور مبعوثا خاصا إلى مصر لجلب عمرو بن العاص وابنه دون تأخير إلى العاصمة المدينة المنورة. وعندما وصلا، كانا على حد سواء أمام الخليفة. ثم أرسل الخليفة للشاب القبطي وسأله عما إذا كان هذا الرجل هو الذي قد ضربك. عندما أجاب القبطي بالإيجاب، سلمه الخليفة سوطا وطلب منه أن يجلد «ابن الأكرمين». فعل القبطي ذلك، وذهب يجلده حتى شعر أن العدالة قد أخذت

مجراها. ثم طلب الخليفة منه أيضا بجلد عمرو بن العاص، والد الشاب الظالم، فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه. ولكن قال القبطي «لا، إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه». ثم خاطب الخليفة الحاكم: «يا عمرو، منذ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟».

أدت الثورة التي قام بها النبي محمد، صلي الله عليه وسلم، وأصحابه إلى انجراف حواجز التمييز في جميع أنحاء العالم. فشهد العالم ميلاد عصر جديد من المساواة بين البشر، التي وضعت في نهاية المطاف في الديمقراطية الحديثة.

تأسست الدول في الأزمنة الماضية على المعتقدات الشركية. وعبد الناس الشمس والقمر، واقنع الحكامُ الناسَ أنهم من نسل هذه الآلهة. ودعا الناس سوراج بانسي (ذرية الشمس) وتشاندر بانسي (ذرية القمر) ولا يزال باقياً في الهند. أراد الحكام بطبيعة الحال من الشعب مواصلة التمسك بهذه المعتقدات الخرافية، حتى إلى حد الاعتقاد أن الشمس والقمر تكسف عند موت الملك، وطالما هم معتزين بشدة بمثل هذه المعتقدات، يمكن للملوك أن يحكموهم دون أي الخوف من تمردهم.

وبهذه الطريقة، كان حكام العصور القديمة رعاة أقوياء للشرك والخرافة. عندما أعلن النبي صلى الله عليه وسلم، سلطته كحاكم، أن الخسوف للشمس والقمر هي أحداث مادية بحتة، وهي بالتأكيد ليست تعبيرا عن تعظيم معين للبشر، اختفى سريعاً التقديس القديم للكائنات الطبيعية والمعتقدات الخرافية. وبدأ عصر جديد فعزو الصفات الإلهية إلى مجرد أشياء موجودة في العالم من حولنا تقهقرت إلى الطريقة الواقعية، أو في اللغة الحديثة، إلى التفكير العلمي.

ولكن، ليس هذا هو كل ما أسبغ النبي محمد، صلي الله عليه وسلم، على الإنسانية. فبالإضافة إلى ذلك، كان هناك الكتاب الإلهي، الذي

شدد على حقيقة أن كل شيء في الأرض والسماء مسخر، بإرادة الله تعالى، لصالح البشرية (القرآن الكريم، ٣١:٢٠)[١]. كان هذا ما استحث الناس ليفكروا فيها بدلا من الركوع لها، وينبغي أن يسخروها لتلبية احتياجات الإنسان بدلاً أن يتخيل إليهم أنها أعلى من الإنسان.

خلق العالم الجديد

قبلت الجزيرة العربية بطولها وعرضها الدين التي جاء بها رسول الله، صلي الله عليه وسلم. وبدأ ينتشر بسرعة مذهلة، وفي غضون قرن فتح آسيا وأفريقيا، حتى وصل أخيرا إلى أوروبا. وإذا نحينا جانبا القارة الأمريكية، فإن جميع الأقطار البحار والمحيطات في العالم، بشكل مباشر أو غير مباشر، أصبحت تحت تأثير أتباع هذا الدين.

واستمرت هذه العملية لمدة ألف سنة. من سوكوتو الخلافة في نيجيريا إلى السلطانيين في اندونيسيا، ومن الإمبراطورية العثمانية في تركيا إلى إمبراطورية المغول في الهند، حيث وجدت واحدة من أوسع الرقع في العالم من حيث الحدود الوطنية والجغرافية. مثل ما لدينا في العصر الحديث يمكن للمسلمين بدون أي معاناة أن يسافروا من خلال هذه المنطقة كلها للتعليم والتجارة وأغراض أخرى.

كان في هذه الفترة، في القرن الرابع عشر، ابن بطوطة، الرحالة المعروف في العصور الوسطى، غطى حوالي ٧٥ ألف ميل في رحلاته. كان قادرا على الانتقال من بلد إلى آخر دون أي شعور بأنه شخص غريب، ولم يواجه مشكلة البطالة في أي مكان. وقال إنه جاء إلى الهند في عهد محمد بن تغلق (١٣٢٥-١٣٥١) حيث كان في استقباله بالهدايا مع أهل الشرف، وعُيّن في وقت لاحق كبير القضاة في دلهي[٢].

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٩ ص ١٤٤

كانت نتيجة هذه الثورة العالمية أنه يمكن الآن أن يقال إن جميع البشر ينتمون إلى أخوة إنسانية واحدة هائلة، هذا المفهوم جاء سريعا ليسيطر على الفكر العالمي. وكانت أول هيمنته على مجتمع المدينة المنورة، ثم شكلت مركزها في دمشق، ومن هذه النقطة وصلت بغداد. ومن إسبانيا وصلت إلى صقلية، وبعد ذلك ذهبت إلى دول أوروبية أخرى.

مع أن الجزء الأكبر في أوروبا فيما يتعلق بالدين لم يقبل مفهوم التوحيد الإسلامي، إلا إنه طبقه على الكون حيث استغله بالكامل ليحدث بذلك ثورة في الفكر. الثورة العلمية والديمقراطية في أوروبا يمكن أن تُسمى «الطبعة العلمانية» للثورة السماوية للإسلام. كما تشير هذه العبارة، فقد فصل الغرب الجوانب الدينية وعلمن الثورة الإسلامية.

يمكن تصور الوضع كالتالي، ليس من المبالغة القول إنه لو حُذف الإسلام من تاريخ البشرية، فينبغي أن يُحذف أيضاً معه كل التقدم الاجتماعي والإنساني. إذ سيسقط العالم مرة أخرى في العصور المظلمة لفترة طويلة مسلسلاً بالأغلال الفكرية قبل أن تأتي الثورة الاسلامية لتصنع التنوير.

حرية التفكير

في العصور القديمة، لم تتضمن الحريات المدنية حرية التفكير. وكانت الرقابة تتفاوت في درجة صرامتها، وكان هذا في الواقع ظاهرة عالمية في جميع عصور التاريخ. سواء كانت المجتمعات كبيرة أو صغيرة فلا فرق. خصصت موسوعة الدين والأخلاق ما لا يقل عن ٢٥ صفحة لتظهره تحت عنوان «الاضطهاد». كيف أنه في جميع مراحل التاريخ القديم، وفي جميع أنحاء العالم أنكر الناس هذه الحرية الأساسية. «كان المجتمع القديم متعصباً للغاية» (ص ٧٤٣). هذا يعني أن تفكير الإنسان العادي بالضرورة عليه الرضوخ لتفكير الطبقات الحاكمة.

خصصت أيضاً الموسوعة البريطانية ثماني صفحات للرقابة الفكرية التي كانت سائدة عالميا في العصور القديمة. خير مثال على ذلك، ما يُستشهد بالمثال السيئ كيف أن المواطنين الصينيين حُرموا من حرية التفكير من قبل شين هوانغ تي، الامبراطور الذي بنى سور الصين العظيم. حيث في عام ٢١٣ أمر بحرق جميع الكتب، وإبقاء الكتب التي لا تحمل مواضيع ضارة كالطب والزراعة. وأعدم خمسمائة عالم وتم نفي الآلاف. وكان العقاب في عدم إحراق الكتب المحظورة في غضون ٣٠ يوما أن يوسم ويدان بالعمل القسري[(١)].

كانت الشعوب الأخرى الذين عانوا بالمثل من قمع مماثل هي اسبرطة وأوائل الرومان واليهود والمسيحيين. وفقا لبلوتارخ، في العادات القديمة لاسبرطة، تعلمت اسبرطة القراءة والكتابة لأسباب عملية بحتة، وكانت جميع التأثيرات التعليمية ـ كالكتب والاطروحات الأخرى، وكذلك اللقاءات مع المثقفين ـ محظورة. ازدهرت الفنون والفلسفة في أثينا الديمقراطية، ولكن العديد من الفنانين والفلاسفة، من بينهم إسخيلوس، ويوربيدس، وفيدياس، وسقراط، وأرسطو، كان حظهم إما المنفى أو السجن أو الإعدام أو الهرب[(٢)].

كان انتقاد السلطات الرومانية أقرب إلى الخيانة لذلك تم تأسيس مكتب الرقيب في روما في ٤٤٣ قبل الميلاد. يقول المقال « وشملت الخيانة التعريض، والتصريح، والنقد. وتم نفي الفلاسفة والبلغاء مرتين من قبل القانون، وتم تقليص ممثلي الحقوق السياسية بمرسوم الرقابة. واُضطهد العديد من المواطنين البارزين لأنهم أدلوا بتصريحات حاسمة عن الطبقة الحاكمة»[(٣)].

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ١٠٨٣

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ١٠٨٤

(٣) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ١٠٨٤

ما يقرب من ثلاثة قرون بعد المسيح، بقي اليهود والنصارى معادين لبعضهم بعض فقط بسبب الاختلافات في معتقداتهم الدينية. أولا اليهود اضطهدوا المسيحيين. وفي القرن الرابع أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية، فاضطهد المسؤولون المسيحيون اليهود[1].

أحد الأسباب التي قيدت حرية التفكير في الماضي أن جوا من الحرية الفكرية من شأنه أن يعرض التسلسل الطبقي برمته للخطر، بناء على ما كان في الأديان التي دب فيها الفساد من قبل تحريفات الإنسان. فإذا أمكن تعزيز حرية السؤال؛ فإن الحكام لن يتمكنوا من الحفاظ على صحة المعتقدات التي صنعوها كي تخدم أغراضهم. وتعرض أولئك الذين سعوا للحرية والبحث العلمي في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوروبا للاضطهاد الشديد من قبل الكنيسة. كان الخوف من جانب السلطات الدينية أن يتم الإطاحة بهم، مما أدى إلى اضطهاد هؤلاء العلماء. وقد أعطى «درابر» تفاصيل هذه الاضطهادات في كتابه المعنون «الصراع بين العلم والدين». ولأكثر دقة كان ينبغي أن يقال «الصراع بين العلم والمسيحية».

عدم مساواة الإنسان

كان التفكير، في العصور القديمة، ضيق الأفق بشكل كبير بسبب الشرك. وذلك لأنه يناسب الحكام بأن يعتقد رعاياهم أن البشر الذين احتلوا عروش هذا العالم يختلفون في جوهرهم عن البشر العاديين. في الواقع أن الملوك مُنحوا الصفات الإلهية. وبهذه الطريقة، ظل الناس العاديين خاضعين لهم، بينما هم أنفسهم يتمتعون بمنزلة ليس فقط أرباب عظماء، ولكنهم أيضاً معبودون.

كانت مثل هذه المعتقدات الشركية أو الخرافية التي منعت الطريق

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ١٠٨٥

نحو حرية الفكر. وكان من المسلم به أن حكم الملك كان الحكم الوحيد الممكن، لذا فأنه لا بد أن يكون على حق. ولا أحد كان له حق الامتياز ليشكل آراء مستقلة، وإذا سمح للآخرين في الكلام، فإنه فقط لإثبات وجهة نظر الملوك. كانت مثل هذه الممارسات التقييدية على أساس المعتقدات الخاطئة مسؤولة في خنق حرية الفكر في العصور القديمة.

مع ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، فقد أعلن ذلك لصالح البشرية أن العظمة المطلقة من خصائص الله تعالى، وأن جميع البشر في نظر الله متساوون. قال النبي، صلي الله عليه وسلم، ليس مرة واحدة ولكن في مناسبات عديدة وبطرق مختلفة أن الجميع على حد سواء، الكل إخوة.

هذا، في المصطلحات الدينية، عُرف بالتوحيد. ليس فقط النبي، صلى الله عليه وسلم، يقرر الحقيقة، ولكن أيضا جعلها واقعا من خلال إحداث ثورة إجمالية على أساس فكرة المساواة بين البشر. في المرحلة الأولى من نبوته، كانت دعوته لهذه النظرية لفظية بحتة. ولكن حين تحقق الهيمنة السياسية في الجزيرة العربية، كان قادرا على وضع هذه النظرية موضع التنفيذ بصفته حاكما للدولة. وبهذه الطريقة، وضع الإسلام حدا للتمييز بين البشر على أساس العرق أو اللون أو المكانة الخ، ويتم تعيين مكانة الناس عالية أو متدنية وفقا لقيمتهم الأخلاقية.

حرية التعبير

الثورة التي بدأها الإسلام على أساس من التوحيد جلبت إلى حيز الوجود لأول مرة في تاريخ البشرية مجتمعاً حقيقياً قائم على المساواة. لقد مهدت الطريق لمجتمع يعيش فيه الجميع متمتعين بحرية التعبير دون أي قيود من أي نوع. لا شيء من هذا القبيل تم ممارسته. دعونا نقارن

هذا مع حالة الإنسان في ظل كسرى الأول، الإمبراطور الفارسي الذي حكم الإمبراطورية الساسانية من ٥٣١ إلى ٥٧٩. كسرى الأول كان مشهورا بأنه أحد الحكام العادلين في بلاد فارس، ولكن حتى خلال فترة حكمه، فإن أحد رجال الحاشية المالكة ضُرب مرة بالهراوة حتى الموت في محكمة بناء على طلب من الملك لأنه تجرأ على انتقاد السياسة الملكية. وكانت عقوبته ليست استثناء. بل أي نقد أو اختلاف في الرأي يعتبر خيانة. وفي الحقيقة كانت أخف عقوبة لهذه الجريمة التنفيذ الفوري. ليس فقط الإسلام تبنى المدافعة عن حرية الفكر والتعبير بجدية واضحة، ولكنه أيضا شكّل مثل هذه التغيرات الاجتماعية بتشجع الناس على كسر الممارسات القديمة، وبالتالي تمكينهم من التعبير علناً عن اختلافهم مع رؤسائهم وانتقادهم لحكامهم.

كان النبي، صلي الله عليه وسلم، له مكانة الحاكم السياسي في الجزيرة العربية، ومع ذلك فلا يزال يعيش مثل أي إنسان آخر عادي، وكان الجميع له حرية التعبير في وجوده. حدث مرة في غزوة بدر، أثناء رحلة النبي صلى الله عليه وسلم قرر عليه الصلاة والسلام أن ينزلوا في مكان معين. عند هذه النقطة قال الحباب بن المنذر: «يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ » أجاب النبي قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة.» فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله[1]«. فالنبي، صلى الله عليه وسلم، لم يوبخ الرجل على جرأته، ببساطة سأله: لماذا؟ كان يعتقد أنه ينبغي أن يكون المخيم في مكان آخر. وعندما سمع أسبابه، وافق على الفور، وانطلق هو والصحابة لإيجاد مكان آخر. الحقيقة أنه لا النبي عليه الصلاة والسلام ولا صحابته كانوا استثناء لسلوك الحباب بن المنذر بل

---

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٤)

هو مثال واضح على الدرجة التي تم فيها تشجيع المساواة في الإسلام.

هذه الثورة، المتشبعة بروح التوحيد الإسلامي، كانت من القوة بحيث آثارها استمرت واقعا محسوسا في كل أنحاء التاريخ الإسلامي. بعد النبي، صلى الله عليه وسلم، خلال فترة الخلفاء الراشدين، أي شخص، بغض النظر عن وضعه الاجتماعي، يمكن أن ينتقد الخلفاء بحرية. وتاريخ هذه الفترة موفور بالأمثلة حول هذا.

كانت الثورة الاسلامية لها آثار بعيدة المدى، حتى في فترة لاحقة من الإسلام عندما حل شكل من أشكال الملكية محل الخلافة، وطوال فترة ١٤٠٠ من التاريخ الإسلامي بأكمله، لم يوجد أبدا حاكم نجح في وضع قيود على الحق في التعبير.

بعض الأمثلة عن التسامح الديني

الثورة الإسلامية التي أحدثها النبي، صلى الله عليه وسلم، والصحابة لم تبق مجرد قضية دينية، أُنشئت دول قوية تتبع الدين الإسلامي بعيدة جداً عن حدود الجزيرة العربية ـــــ هذه العملية استمرت لمدة ألف سنة وأثرت في العالم المأهول برمته في ذلك الوقت. ولكن ولا مرة واحدة، في تلك الفترة كلها، كان هناك أي محاولة لفرض الرقابة على الفكر الإنساني. في كل هذه الدول الإسلامية الجديدة، يتمتع الناس بحرية تامة في التفكير. هنا يجب أن نقتبس بعض الحالات لهذا الغرض من كتاب الأستاذ أرنولد، عنوانه «الدعوة إلى الإسلام». أولا، هناك مقتطفات من البيان الكامل الذي أدلى به أحد مسلمي الأسبان الذي طُرد من وطنه الأم. احتجاجا على اضطهاد محاكم التفتيش، وفي المقابل، قال إنه يؤكد التسامح لمن كان على نفس ديانته: «صحيح، أن أسلحتنا مفتوحة لتستقبل كل الذين لديهم ميل لاعتناق ديننا، ولكن نحن لا نسمح بذلك لأن قرآننا العظيم يمنع الاستبداد على الضمائر ...»[1].

(١) الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد (١٤٣)

ثم، حول موضوع التسامح الديني للأتراك، يقول الأستاذ أرنولد: «... على الأقل لمدة قرنين بعد غزوهم لليونان (الامبراطورية العثمانية) أظهروا التسامح في ذلك الوقت بطريقة لم تُعرف بتاتا في بقية أوروبا.[1]»

أخذ مكاريوس، بطريرك أنطاكية في القرن السابع عشر، يدعو للأتراك عندما رأى الفظائع المرعبة التي ألحقها البولنديون الكاثوليك على الروس من الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. وهذه كلماته: «الله يديم إمبراطورية الأتراك إلى أبد الآبدين! فهي تأخذ المكس، ولا تتدخل في دين رعاياها، سواء المسيحيين أو النصارى أو اليهود أو السامريين[2]»

إعطاء العديد من الأمثلة عن حرية الفكر والتعبير خلال الفترة الإسلامية، كتب أرنولد أن تلك المحافظات الرومانية التي تم فتحها بسرعة عن طريق المسلمين وجدوا أنفسهم فجأة في جو من التسامح لم يكن معروفًا لهم لعدة قرون. مثل هذا التسامح كان مذهلاً للغاية في تاريخ القرن السابع الميلادي.

الحرية الدينية

يذكر البروفسور أرنولد حادثة أخرى وقعت خلال حكم الخليفة العباسي، المأمون (٨١٣-٨٣٣). عندما جاء المأمون وعرف أن أعداء الإسلام أعلنوا أن نجاح المسلمين بفضل السيف وليس لقوة الحجة، استدعى جمع عظيم من قادة جميع الهيئات الدينية في تلك الفترة. وفي هذا الاجتماع، دافع الأطباء المسلمون عن دينهم ضد التهم، واعترف الكفار أن المسلمين أثبتوا بصورة مرضية وجهة نظرهم[3].

يذهب الأستاذ أرنولد إلى القول: «المأمون نفسه كان متحمسًا جدا

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ١٥٧

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ١٥٨-١٥٩

(٣) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ٨٦

في جهوده لنشر الدين الإسلامي... لكنه لم يتعسف بسلطته الحاكمة من خلال محاولة فرض دينه على الآخرين.[1]»

يازدان بخت، زعيم للطائفة المانوية الذين جاءوا من بلاد فارس، كان أحد المشاركين البارزين في جمعية الأديان العظيمة التي عقدت في بغداد، عقد المناظرات مع علماء المسلمين، صمت تماما، فقد كان متأثرا للغاية وذلك لقوة الحجة الإسلامية. ثم حاول الخليفة حمله على اعتناق الإسلام. ولكن رفض يازدان بخت، وقال: «يا أمير المؤمنين، نصيحتك وصلت وكلماتك سُمعت؛ ولكنك كنت واحدا من أولئك الذين لا يفرضون على الناس التخلي عن دينهم.» بعيدا عن امتعاض مبغضي النجاح لجهودهم، زوده الخليفة بحرس مسلحين، كي لا يتعرض لإهانة من عامة الناس المتعصبين.[2]»

في ظل الإسلام هناك حرية لكل فكر، وكذلك احترام لكل إنسان مفكر، بغض النظر عن تفكيره الذي قد يكون مختلفاً عنا. لا يقتصر الإسلام على منح حرية الفكر، ولكنه أيضا يحترم دعاة جميع المدارس الفكرية[3].

عصر الحداثة والإسلام

يُعتقد أن حرية الفكر هي من الثمرات الحميدة للعصر الحديث، ويعتقد بوجه عام أنها نتيجة للثورة العلمية الغربية. صحيح أن هذا هو السبب المباشر، ولكن الثورة العلمية نفسها (كما سبق بيانه في الفصول السابقة) نتيجة للثورة الإسلامية المبنية على التوحيد.

---

(١) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ٨٦

(٢) الموسوعة البريطانية (١٩٨٤) المجلد ٣ ص ٨٥

(٣) احترام دعاة جميع المدارس الفكرية فيه تفصيل، فمن كان يدعو لفكر وإلحاد وزندقة أو بدعة فهذا يحذر الناس منه، ويبين للناس ضلاله وانحرافه حتى يسلم الناس من شره، وهذا من باب النصيحة لله ولكتابه ورسوله ولأئمة والمسلمين وعامتهم. والأمر يتطلب تفصيلا ليس هذا موطنه. (المترجم)

الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨)، كان واحدا من مؤسسي الديمقراطية الحديثة. وكتابه، في العقد الاجتماعي، يبدأ بهذه الكلمات: «ولد الإنسان حر، وفي كل مكان، هو الآن يرسف في الأغلال» هذا الشعور يعرب عن رثاءه على استعباد الإنسان ــ إنه ليس في الواقع هدية روسو للبشرية؛ بل بدلاً من ذلك هي صدى للكلام الأكثر من رائع للخليفة الإسلامي، عمر بن الخطاب (٥٨٦-٦٤٤)، والذي أدلى به لحاكم مصر: «يا عمرو، منذ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟» المناسبة لهذا التوبيخ كان بسبب ضرب ابن عمرو للشاب المصري الذي كان قد فاز عليه في سباق الخيل كما روى سابقـًا.

جلبت الثورة الحرية والديمقراطية للشعب التي بدأت في أوروبا، وانتشرت بعد ذلك في بقية أنحاء العالم في العصر الحديث، ما هي إلا المرحلة الثانية لهذه العملية الثورية التي نشأت في القرن السابع من قبل الإسلام.

إعلان حقوق الإنسان العالمية

تنص المادة ١٨ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة على ما يلي: لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة.

الميثاق، المقتبس في المادة المذكورة أعلاه، ليس في الواقع إنجازا للأمم المتحدة، بل هو إرث من الثورة الإسلامية الذي جاء إلى حيز

الوجود قبل ظهور الأمم المتحدة بألف سنة[1].

لأول مرة في تاريخ البشرية، اقتلع الإسلام نظاما يقوم على الشرك، كان مسؤولا عن عقلية التميز بين الإنسان والإنسان. وكان هذا التقسيم غير واقعي يؤصل لكثير من الظلم الاجتماعي الذي كان سائدا في العصور القديمة.

من ناحية غيّر الإسلام العقل البشري، ومن جهة أخرى، أحدث ثورة عملية على نطاق واسع إيذانا ببدء حقبة جديدة كاملة من حرية الإنسان واحترامه. وعلى مدى قرون ذهبت هذه الثورة من قوة إلى قوة، حتى في نهاية المطاف جلبت أوروبا تحت نفوذها. وهناك بلغت ذروتها في الحرية والديمقراطية الحديثة، والذي يميل الناس في هذه الأيام بتخيلها أنها قد وجدت في كل الأزمان. ولكن هذه الثورة الديمقراطية في أوروبا الحديثة هي النسخة العلمانية للثورة الإسلامية التي أعطيت دفعتها الأول في القرن السابع في الجزيرة العربية من قبل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم. رؤية الإسلام بالمنظور التاريخي، ومن الزاوية العلمية وبالرؤية الاجتماعية والاقتصادية، نجد أن الإسلام هو المبدع الحقيقي للعصر الحديث.

---

(١) حرية تغيير الدين ليست هكذا بإطلاق، فقد جاء في صحيح البخاري من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من بدل دينه فاقتلوه» فالإسلام اشترط لمن دخل الإسلام فعليه أن يلتزم به، ومن الشروط التي يجب الالتزام بها هو عدم تبديل وإلا فهو مرتد وحكمه القتل، على تفصيل، وهذا لا يعترض مع حرية الاعتقاد لأن في هذا حفظ لديانة الناس من الانجرار وراء الكفر والإلحاد، وفيه صيانة للدين من التلاعب من الدخول والخروج من الدين حيث شاء، ومن أراد المزيد فعليه مراجعة كتب العقيدة. (المترجم)

الفهرس